

بقلم مريم محمد المختار

أكاد أجن ضياع

أكاد أجن "ضياع"

إهداء

لأختي التي تقول إن قراءة قصص
الرعب ليس
ت سوى ضرباً من ضروب
الجنون...
لأمي التي حذفت كل ملفاتي بصيغة
PDF قائلةً إن القراءة مضيعة
للوقت

شكر

لكابوسي الذي ألهمني لكتابة هذه
الرواية...

تمهيد

حروفٌ تغوص في أعماق الخيال
مرتديةً أثواب الواقع، وجُمْلٌ تُسطر
على جسرٍ يربط بينهما لتجعل من
القلب مرآةً لا تُطل على أحدهما إلا
لتعكس الآخر، فيغدو القلب أسيرًا لما
يراه العقل.

أحداثٌ تشابكت فغدت خيوطًا يصعب
فكّها، ودواماتٌ امتزجت ببعضها
فأسرت الأنفاس حيرةً، وشكوكٌ
تتالت فطغت على اليقين، فعجزت
الأنفاس عن فكّ أسرها. لكن... وسط
كل تلك الخيوط المتشابكة، وذلك
العالم المظلم الغامض، يكمن شعاع
أملٍ منيرٍ في آخر النفق، مُطلٌّ على
آفاقٍ جديدة، كطرف خيطٍ يستحيل

فتحها بدونه ويصعب إمساكه في
الوقت ذاته...

فهل من مُمسكٍ بطرف ذلك الخيط؟
وهل من ناجٍ من غموض ذلك العالم
يا ترى؟ لنرَ ذلك سويًا بمشاركة
أحدهم تفاصيل قصته بأذانٍ صاغية
وأذهانٍ صافية...

وسط مناظر الطبيعة الخلابة، ما بين
جبالٍ وشواطئٍ وأنهار، كان الليل قد
أسدل عليها عباءته، حيث ذلك
المنزل المطلّ على أحد جبال قرية
أغلاسير في مونتانا، بالقرب من
حديقة أغلاسير الوطنية، حيث
تتراقص نسمات الهواء بعفوية على
أنغامٍ هادئةٍ لخرير المياه وزقزقة
العصافير المختبئة خلف الظلام.

كانت الويزيانا تغوص في أعماق
نومها، ليتخلله الاستيقاظ حين طرق
الفجر باب يومها الجديد، فتستمتع
باستنشاق رائحة الندى الفوّاحة،
وتتراقص خصلات شعرها مع تلك
النسمات العفوية، فتقف على طرف
نافذتها منتظرة استقبال أشعة شمس
ذلك اليوم. لكن ما هي إلا لحظات من
الاسترخاء والتأمل حتى انتشلها
صوت طرقاتٍ على الباب من ذلك
الصفاء.

اتجهت الويزيانا نحو الباب ناويةً
فتحه، غير أن ذلك المشهد اللطيف

استوقفها؛ إذ رأت طفلين يلعبان
بالقرب من جبل إطلالتها، والغريب
أنها كانت تسمع صوت ضحكاتها
رغم بُعد المسافة.

بعد ثوانٍ من مراقبتها للطفلين،
ظهرت في الأفق عجوزٌ شمطاء لا
يدعو مظهرها إلى الاطمئنان البتة.
وحين وصلت العجوز إلى مكان لعب
الطفلين، حجب الغبار رؤية الويزيانا
لما حدث، ولم تتضح لها الرؤية حتى
اختفى كلٌّ من العجوز والطفلين، فلم
تر سوى الفراغ.

نظرت إلى المكان مستغربةً ما
حدث، فعادت الطرقات مجددًا،
فظنت أن ما رآته مجرد خيال.

استأنفت سيرها نحو الباب وهمّت
بفتحه...

حين فتحتة، فوجئت بطارقه؛ فإذا بها
العجوز ذاتها. لم تصدق ما رأتها،
وتملكتها الحيرة، فلم تعرف ما الذي
عليها فعله. كانت العجوز مرعبة،
مكتسيةً بالأوشام الغريبة حتى
وجهها، مرتديةً أثوابًا غير مألوفة،
وتضع بعض المجوهرات التي كانت
ما بين حديدٍ صديءٍ وزهرٍ ذابل. كان
مظهرها غريبًا، كما لو أنها تنتمي
لثقافةٍ أخرى أو لعالمٍ آخر. لم يكن
شكلها ولا ملامحها يدعو إلى
للاطمئنان، فدبّ الخوف في داخل
الوزير يانا.

لكن طيبة كلمات العجوز ضاعفت
حيرتها؛ ظلت توزع ابتساماتها
وترحب بلسان بقية سكان القرية، ثم
أعطت الويزيانا خاتمًا قالت إنه هدية
من القرية.

حسنت الويزيانا أمر حيرتها،
وأقنعت نفسها أن ما رآته قرب الجبل
كان خيالًا، وأن العجوز ربما ليست
ذات العجوز كما اعتقدت، فظلت
تبتسم في وجهها بتكلف، وجارتها في
أحاديثها، ثم أخذت منها الخاتم قبل
أن تغلق الباب وتغادر.

أخذت الويزيانا تتفحص الخاتم
بتمعن؛ كان خاتمًا جميلًا من حيث
الشكل، غير أن من أمعن النظر فيه

يجد بعض الرموز الغريبة قد نُحتت
عليه بدقةٍ عالية، لا يكاد المرء يراها
دون تمعن. احتارت إن كان عليها
وضعه في إصبعها أم لا، وبعد أن
أطالت النظر في تفاصيله، وضعت
قرب نافذتها وقررت تجاهله.

واصلت تأمل إطلاقتها، وخطر لها
أن تُعد كوبًا من القهوة تستعيد به
تركيزها ويضفي جمالًا على جلسة
استرخائها تلك. اتجهت نحو المطبخ،
وكانت المفاجأة بانتظارها هناك...

حين أخذت منعطفًا لتدخل إلى
المطبخ — الذي، على حد علمها، لا
أحد يمكن أن يكون فيه، فهي في
المنزل بمفردها — توقفت مكانها

مذهولةً مما رآته، غير قادرة على
استيعابه. كانت العجوز التي أغلقت
الباب في وجهها منذ قليل.

لم تصرخ، ولم تُبدِ أي ردة فعل،
سوى أنها بقيت متسمةً مكانها دون
أن تنبس ببنت شفة. لم تكن العجوز
طليقة الوجه كما كانت منذ قليل؛
كانت تقف مقابلةً لها بملامح حادة
ونظرة باردة مرعبة.

لم تصدق الويزيانا ما رآته عيناها،
فأغمضتهما لعل ما تراه لا يزال من
نسج خيالها، وحين فتحتهما مجددًا
كان المطبخ فارغًا بالكامل.

لم تستطع أن تتناسى الأمر كما فعلت
سابقًا؛ فقد استوطنها الخوف هذه

المرة. بدأت تخطو ببطء مستأنفةً
سيرها. كان المكان هادئًا بشكلٍ
مريب، خاليًا من أي صوت عدا
نبضات قلبها المتسارعة وأنفاسها
غير المنتظمة.

بدأت تلمح صوت خطواتٍ يلاحقها،
يقترّب منها، يقترّب حتى أصبحت
أنفاسه الدافئة تصل إلى عنقها...

لم تمتلك الشجاعة لتلتفت إلى الخلف.
شعرت أن ذلك الشيء ينقضّ عليها.
ازدردت ريقها غير قادرة على
الحركة. لم تلبث أن همّت بالهرب
حتى أمسك ذلك الشيء بشعرها...
وشدّه بعنف.

أخذ يجرّها من شعرها دون رحمة.
صرخت بأعلى صوتها... «لا
مجيب».

بدأت الأغراض تتساقط هنا وهناك،
وبدا الأثاث يتكسر قطعةً تلو
الأخرى. بدا المكان وكأن لعنةً قد
حلت به؛ ذبل جماله، واختفت منه
معالم الحياة، وساد الخراب والدمار
والظلام. اختفت نسمات الهواء،
واختفى الهدوء ليحلّ الصراخ
مكانه... صراخٌ مفزع، صراخٌ
صاعق يزلزل القلوب.

سحبته العجوز نحو عالم تجهله،
يسوده الظلام والصراخ، وكأن أناسًا
يُعذِّبون خلف تلك العتمة. وجدت

نفسها جالسةً على كرسيٍّ يعتليه نورٌ
خافت وسط الظلام. أخذت تتلفت
يمينًا ويسارًا محاولةً معرفة المكان.

رأت أناسًا غربيي الأطوار، لم
يذكروها إلا بتلك العجوز، وكأن هذا
عالمها الذي تنتمي إليه.

قبل أن تفهم ما يحدث، رأت امرأةً
متجهةً نحوها؛ كانت متوسطة العمر،
لا هي بعجوز ولا شابة، تحمل إكليلًا
أسود باهت الجمال، ووروده ذابلة،
وكان كل ما في هذا العالم لا ينبض
بالحياة.

تقدمت نحوها ولقت الإكليل حول
عنقها، تحت نظراتها المتسائلة

وخوفها اللامحدود وعلامات
الاستفهام التي ملأت رأسها:

أين هي؟ من هؤلاء؟ لِمَ هي هنا؟ ما
الذي يريدونه منها؟

الكثير من التساؤلات يضجّ بها عقلها
دون أن تجد لها إجابة. طغى الخوف
على فضولها، فلم تعد تود سوى
الخروج من ذلك المكان بأي طريقة.

رأت ظل أحدهم يختبئ في الظلام،
ثم أخذ يقترب خطوةً بعد خطوة حتى
اتضحّت ملامحه، وأيقنت أنها ذات
العجوز. كانت تحمل كماشة،
وابتسامة شرّ ترسم على شفتيها.

كانت الويزيانا جامدةً على الكرسي
دون حراك، وكأن أحدهم قيّد أطرافها
وأحكم إغلاق فمها. لم تستطع التفوه
بأي كلمة، رغم أنها لم ترَ أي عائقٍ
مرئيّ يقيّد حركتها.

أخذت تتلفت علّها تجد من يساعدها،
لكنها لم ترَ سوى الظلام، حتى حاملة
الإكليل ابتلعها الظلام.

خاطبت نفسها باستنجاٍ وتوسل:

«أرجوكم... أخرجوني من هنا...
أتوسل إليكم...»

في رمشة عين، كان وجه العجوز
ملتصقًا بوجهها. اتسعت ابتسامتها
وهي تقول:

«أهلاً بك في عالم اللا أصابع.»

تذكرت الويزيانا حينها أن كل من
رأته في هذا المكان لا يملكون
أصابع. أيقنت أنها توشك على ملاقة
حرفها. اضطربت نبضات قلبها
وضاقت أنفاسها.

اتجهت العجوز نحو قدمها اليمنى،
وهمت بقطع أصغر أصابعها.
أغمضت الويزيانا عينيها مستسلمةً
لمصيرها...

حلّ في الأرجاء صمتٌ غريب، ثم
سمعت ذلك النداء:

الويز... الويز... الويزيانا،
استيقظي...

فتحت عينيها، فإذا بكل ما رآته مجرد
كابوس. لا شيء حقيقي سوى
وجودها في المنزل المطلّ على
الجبال. أخذت تدور بنظرها في
الأرجاء كالتائه المجنون...

— هيا يا ويز، لم نأتِ إلى هنا
لتضييع الوقت، لدينا الكثير لنقوم به،
أنسيتِ ما خططنا له؟

نظرت الويزيانا إلى صديقتها ألسا،
محاولةً أن تتذكر ما كانتا تخططان
له، ثم سرعان ما تذكرت الكابوس،
فألقت نظرة على إصبع قدمها لتتأكد
إن كان قد قُطع أم لا...

أخذت ألسا تثرثر حول مخططاتهما،
ظناً منها أن الويز تستمع إليها، ولم

تلحظ شرودها. نهضت الويزيانا من
على سريرها واتجهت نحو النافذة،
غير مستوعبة أن ما عاشته لا يعدو
كونه كابوساً مروّعاً.

صُعقت حين رأت الخاتم الذي
أعطتها العجوز إياه — كان في
المكان نفسه الذي وضعت فيه في
الحلم — فأخذت تتأمله مجدداً، غير
مصدقة ما تراه...

ولا تزال ألسا تثرثر دون اكتراث
لعدم انتباه الويزيانا...

«مهلاً لحظة... نحن لم نتعرّف على
الويزيانا بعد.»

لويزيانا روكفلر فتاة يافعة في مقتبل
العمر، تبلغ حوالي 23 عامًا، تنتمي
إلى إحدى أغنى وأعرق العائلات
الأمريكية — أي أغنى العائلات في
أقوى دول العالم — كما حظيت
بجمالٍ لم يكد يطأ الأرض من يحمله.

أكثر ما يبرز جمالها عيناها
الواسعتان ذواتا الرموش الكثيفة
الطويلة، وعدستاها الرصاصيتان
الجذابتان بشكل لا يُقاوم. وما إن
تزداد ملامحها حدةً بعينيها الثاقبتين
حتى ترسم البراعة على ابتسامتها
حين تظهر غمّازاتها، مع نابٍ مميّز
وُضع بدقة بين أسنانها ليُجعل تلك
الابتسامة الساحرة تزداد جمالاً.

وما بين جاذبية عينيها وبراعة
ابتسامتها يقف أنفها الذي استُلَّ
كسيف يفصل بينهما بشكل يُعجز من
يراهها عن تخيل مدى دقة تلك
الملامح وتناسقها بصورة لا توصف.

كانت ذات قوامٍ متناسق بطولها
المميّز وأعضائها التي بدت كما لو
أنها انتُقيت ما بين الأفضل والأفضل،
كي تحظى لويزيانا بمظهرٍ يتخطى
جماله كل المقاييس المتعارف عليها
لدى مختلف الأعراق.

كان في بشرتها الناصعة البياض
كالثلج، والناعمة كشعرها الحريري
البنّي المائل إلى الأسود، ما يُرغم كل
من يرى طيفها على التمعّن في

تفاصيلها رَغْمًا عنه؛ ليس كتمعنه في
لوحةٍ أتقنها فنان بتناسق ألوانه، بل
كفتاةٍ حُفر الجمال بقدرةٍ إلهيةٍ في كل
تفصيلٍ منها.

حظيت لويزيانا بكل ما قد يحتاجه
المرء ليكون سعيدًا في دنياه: جمالٌ
خرافي أقرب للخيال، وعرقٌ تغلغل
بين أعرق الأنساب، ومالٌ فاق أموال
كثيرٍ من أغنياء العالم. غير أن
فقدانها لتفصيلٍ صغيرٍ قد يبدو تافهًا
— كالانتماء والخلود إلى النوم دون
كوابيس — جعل نعيمها يتحول إلى
جحيم...

لا تدري لويزيانا متى بدأت معها تلك
المشكلة، كل ما تعرفه أن تلك

الكوابيس المروّعة لا تفارقها أثناء نومها، ولا حتى حين تكون مستيقظة؛ فكل كابوسٍ استيقظت قبل أن تكتمل قصته عاد ليلاحقها في الواقع، فكان الخيار أمامها بين العودة إلى النوم لإكمال تلك القصة المروّعة، أو السماح لها بقلب واقعها إلى كابوس.

كان الفرق الوحيد بين هذا وذاك أن إكمالها للقصة أثناء نومها قد يكون نهايةً مؤقتةً لخوفها، بينما تبقى القصة متواصلة دون نهاية إن بقيت مستيقظة.

احتارت بين رعبٍ في انتظارها حين تنام، وخوفٍ لا يفارقها حتى وهي

مستيقظة. احتارت بين قصة مروعة
جديدة تختبئ وراء غرقها في النوم
مجددًا، وإرهاقٍ تستحيل مقاومته أو
التعايش معه. لتكون لويزيانا
محصورة بين خيال وواقع، بين نوم
واستيقاظ، بين خوف ورعب.

فطغى كل ذلك على مالها ونسبها
وجمالها وحتى ناسها، فقد كانت تجد
صعوبة فائقة في التأقلم مع الناس.
أجبرتها حالتها أن تكون انطوائية
حتى مع أصدقائها، فاختارت أن
تغطي ذلك بقناع القسوة والغرور كي
تتجنب قرب أحدٍ منها أو دخوله
مساحتها الخاصة التي تجد هي نفسها
صعوبة في التعايش معها.

حاولت في البداية أن تعثر على
شخصٍ يحبها كما هي، شخصًا يحبها
حبًا صادقًا دون مقابل، يُغنيها عمّن
حولها، لكنها لم تجده.

ورغم تظاهرها بالقسوة وتجنب
تكوين العلاقات، إلا أن رغبتها في
تكوين صداقات تغلبت على ذلك.
شعر أصدقائها بنفورها من لقاءاتهم
وفعالياتهم، واعتبروا ذلك غرورًا
منها أو تعاليًا. كانت تتجنب تلك
اللقاءات متحججةً بانشغالها بالدراسة،
فانغمست فيها محاولةً تناسي السبب
الحقيقي وراء تجنبها الاحتكاك بهم.

كانت تفتقد تلك الأجواء؛ فلكون أبيها
جون روكفلر من أكبر رجال

الأعمال، لم تحظَ بلحظاتٍ أبويةٍ معه،
تمامًا كما هو حال أمها أنجولي، التي
كانت سيدة أعمال بدورها، مما شغلها
عن توفير الحنان لابنتها.

أما أخوها أدريان فكان يستعد لاستلام
العمل من بعد أبويه، ولم يكن حنونًا
بطبعه؛ لم يكن ذلك الأخ الذي يكون
سندًا لأخته في لحظات كهذه، إذ كان
يعتبر إدارة الأعمال أمرًا أهم.

لم يكن للويزيانا سوى أختها الكبرى
إيميلي. كانت إيميلي الوحيدة التي
تعرف تفاصيل حالة أختها؛ فقد كانت
لويزيانا تحاول جاهدة إخفاء الأمر
عن بقية العائلة، أو إخبارهم بأنه لا

يتعدى كونه كوابيس مزعجة تؤرق نومها دون المساس بواقعها.

لم تكن تشعر بالانتماء إلا بالقرب من أختها. وكانت إيميلي دائماً ما تحثها على الاحتكاك بالعالم الخارجي. لم تكن لويزيانا هادئة الطبع أو خجولة بشخصيتها، لكنها تجد صعوبة في التقرب من أحدٍ لئلا يكشف ضعفها المختبئ وراء قسوتها المصطنعة.

احتاج الأمر منها عدة أعوام كي تستجمع شجاعته وتقرر الخروج مع أصدقائها، فقررت مشاركتهم تلك الرحلة الاستكشافية التي تلت تخرجها.

قبل أيامٍ فقط من يوم تخرجها، قامت
بزيارة أماكن متفرقة من نيويورك
غير مكانها المعتاد؛ فقد اعتادت
الاكتفاء بزيارة تمثال الحرية،
والتأمل في تفاصيله متفكرةً كيف
سُلبت حريتها بهذا الشكل.

لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً؛
كانت تود الاستعداد لتلك الرحلة،
فبدأت بزيارة أشهر المتاحف هناك
— المتروبوليتان — ومشاهدة
عروض برودواي الساحرة،
والاستمتاع بناطحات السحاب،
والمرور بشوارع نيويورك التي لم
تكن مألوفة لها رغم أنها قضت
حياتها فيها.

كانت تود استكشاف محيطها أولاً، ثم
الانطلاق في رحلتها مع الأصدقاء
بعد التخرج.

قامت بزيارة أشهر المطاعم هناك،
من Le Bernardin الفرنسي إلى
Eleven Madison Park، وكل
ذلك وهي بمفردها، بعد أن أنهت
كابوسها الأخير. ورغم ذلك، لم تكن
مرتاحة... فكيف سيكون حالها حين
تبدأ كوابيس جديدة ويظهر خوفها
أمام الجميع كما كانت تخشى؟

لم يعد يفصلها عن الرحلة سوى
التخرج، وها هو يوم حفلها... فهل
ستسير الأمور كما خططت؟

«أمامي حياة طويلة لأعيشها، وأشياء كثيرة لأجربها. ستكون هذه الرحلة بعد تخرجي رحلة لا تُنسى، ستعوضني عن كل ما فاتني. سأكتشف المناطق كما لو أن حياتي بدأت للتو. سأتغلب على خوفي، سأحتك بأصدقائي أكثر، سأجرب أشياء جديدة، سأنسى الماضي، ولن تؤثر حالتي على حياتي بعد الآن...»

كانت تكرر تلك الكلمات أمام أختها كما لو أنها تحاول إقناع نفسها بها.

لكن في حفل تخرجها بدأ الخوف يدب في قلبها. ماذا لو انعكست

التجربة سلبًا عليها؟ ماذا لو كُشفت
حالتها؟ ماذا لو...؟

بدأ عقلها يضج بتلك الأسئلة منذ بدء
الحفل.

قدمت أنجولي سيارة من آخر
صيحات الموضة — Tesla —
لابنتها بمناسبة التخرج، كما قدم لها
جون يختًا كاملاً في المناسبة نفسها.
تلقت الكثير من الهدايا الفاخرة بين
سيارات ويخوت وساعة ذكية من
أخيها أدريان.

كانت كل الهدايا مادية، عدا العقد
البسيط الذي أهدته لها أختها، والذي
حمل اسميهما بتصميم أنيق على
شكل قلب:

Emily  Lwiz

أرادت أن تتذكرها بتلك القلادة أثناء
رحلتها.

وزعت ابتسامات متكلفة على الجميع
حين تلقت التهاني، ثم بعد الكثير من
اللهو بين رقصٍ واحتساء كحول،
انتهى الحفل، ليبدأ تأهبها للرحلة.

كانت تود تجنب النوم في تلك الفترة
خشية بدء كابوس جديد، فظلت
صامدةً طيلة الطريق دون أن تغمض
لها عين، لكن لا حياة بلا نوم...

فما إن وصلوا إلى أول وجهة —
قرية أغلاسير — حتى استسلمت

لنعاسها، فغطت في نوم عميق، لتبدأ
قصة جديدة مع تلك الغفوة ليلتها...

واصلت ألسا حديثها حول
مخططاتهم، بينما ظلت لويزيانا تنظر
إلى الخاتم بتمعن، تتأمله لتتأكد إن
كان هو نفسه الذي رآته في الحلم.
طال نظرها إليه، فتذكرت عهدا
لنفسها بأنها لن تسمح لكوابيسها هذه
المرة بإفساد لحظاتها مع أصدقائها أو
التأثير على سعادتها.

فعلى لسانها، للتو بدأت الاستمتاع
بشبابها. عليها أن تفتح أبواب المرح
والسعادة التي تليق بها دون التفكير
في أي شيء آخر. لا يصلح لجميلة
ثرية مثلها أن تُحبس بين جدران

قصرها خشية كشف الناس
لكوابيسها.

حدثت نفسها قائلة:

«لظالما كنتُ جريئةً لا أبالي...
وهكذا سأكون. حان لأيام الوحدة أن
تنقضي.»

رمت الخاتم بكل قوتها بعيدًا، بحيث
لو أرادت العثور عليه لما استطاعت،
ولن تبحث عنه على أية حال.

ألقت نظرة على ألسا، متجاهلة
حديثها، وسألت:

— أين البقية؟

— إيما وأغليتر نائمتان في الغرفة،
أما الشباب فأعتقد أنهم في الخارج،
لا بد أنهم وجدوا ما يستمتعون به
وسط تلك المناظر. علينا أن نسرع
كي نلحق بهم، لن نفوت فقرة من
المغامرات في هذا المكان، فهو مليء
بما يثير الدهشة...

— معكِ حق... علينا أن نستعد
لنلحق بهم. حسناً، لنوقظ الفتيات...

اتجهت ألسا مع لويزيانا إلى الغرفة
عبر عتبة الباب دون أن يحدث أي
أمر مريب. كانت إحدى الفتيات نائمة
تحت الغطاء بشكل طبيعي، فاتجهتا
نحوها لإيقاظها، لكن فجأة فزعت كل
منهما من شكل الفتاة؛ إذ قفزت

نحوهما في انقضااض مروع بهيئتها
المرعبة. كان شعرها يتطاير إلى
الأعلى في صورة شبحية، وعيناها
سوداوان بالكامل وكأنهما تتمردان
على ضوء النهار. فتحت فمها عن
أنياب طويلة يتقاطر منها ما يشبه
دماءً قاتمة الحمرة، وما إن صرخت
في وجههما حتى صرخت كل منهما
مفزوعةً رعباً، ثم التفتتا إلى الورااء
لتلوذا بالفرار، فإذا بنفس المشهد
ينتظرهما خلف ظهريهما؛ الفتاة
الأخرى تخبئ وراء الباب في حالة
مشابهة.

ما إن صرخت الفتاة الأخرى حتى
صرخت كل منهما صرخة مدوية
أكثر من سابقتها، ثم تشبثتا ببعضهما

متخذتين وضعية القرفصاء، وكل
منهما تتوقع على الأخرى غير
قادرة على التنفس.

ضحكت الفتاتان من حالتهما وأخذتا
تقلدان صراخهما بسخرية، ثم واصلتا
الضحك ثانيةً بقوة وصلت إلى قهقهة
متقطعة. رفعت ألسا ولويزيانا
رأسيهما، فإذا بإيما واغليتر قد
وضعتا أسنانًا مستعارة مع بعض
الكاتشب والمكياج المخيف، إضافة
إلى تسريحة مرعبة.

انصعقت ألسا ولويزيانا؛ إذ تبين أن
كل ما حدث لم يكن سوى مقلب
مرعب من صديقتيهما. أخذت
الفتاتان تمسحان عنهما الكاتشب

وتخلعان الأسنان المستعارة، ولا
تزالان تضحكان بشكل هستيري،
بينما أخذت ألسا ولويزيانا تلومانهما
على ما فعلتاه.

لا تزال الفتاتان تعيدان تلك الصرخة
بسخرية وتتفجران بالضحك مجددًا.
نطقت ألسا مستسلمة:

«مجنونتان...»

ثم استأنفت:

«هيا، علينا أن نذهب»، قبل أن تقول
بتهديد:

«ولكن سننال منكما فيما بعد.»

ردت إيما بسخرية:

«إن استطعتما...»

ثم حركت رأسها وهي تمد لسانها
ساخرة، قبل أن تلتفت إلى أغليتر
مقلدة صرختهما مجدداً وتتفجر في
الضحك. صافحت كل منهما الأخرى
وكان المهمة قد تمت.

ثم اتجهتا نحو الحمام كما قالت ألسا،
أما لويزيانا فبقيت صامتة واقفة
مكانها في صدمة وهي تقول لنفسها:

«ماذا لو دمجت تلك المقالب مع
كوابيسي؟ لا شك أنني سأجن...»

لاحظت ألسا شرودها فانتشلتها منه
قائلة:

«هيا، لا تضيعي الوقت في التفكير،
سنقتص منهن فيما بعد.»

تجهزت الفتيات بسرعة كما اتفقن،
وأخذن عدتهن لبدء التجول في تلك
القرية، ثم خرجن ليجدن الشباب في
انتظارهن. انطلق الجميع لبدء أولى
فقرات الرحلة، وأخذوا يخططون
لتنظيم وجهاتهم.

نطقت ألسا:

«لقد سمعت الكثير عن حديقة
غلاسير في قرية غلاسير... ما
رأيكم أن تكون نقطة البداية؟»
جاك: إن أردنا زيارة حديقة، فأنا
أفضل أن نبدأ بالمشي في حديقة

جبال المذنبات الوطنية، فقد سمعت
أن مسارات المشي فيها جميلة...

إيمًا: لا، أنا متحمسة أكثر لزيارة
الشلالات، فهي مثالية لالتقاط
الصور، وأعتقد أن فقرة التصوير من
أجمل الفقرات في مثل هذه الرحلات.

عارضتها اغليتر: ماذا لو بدأنا
بزيارة بحيرة إبلید؟ لا بد أن الأجواء
هناك مريحة ومسلية في الوقت ذاته.

أفريدي: أنا أفضل من بين كل هذا
زيارة الجبال، فلا بد أن تسبقها
سيكون مسليًا، خاصة إن تسابقنا...
ما رأيكم؟

دافيد: في الحقيقة، كل الخيارات
مسلية، لكن ماذا عن نهر نيناك؟ ألن
يكون مغامرة جميلة في جدول
رحلتنا؟

واصلوا تخطيطاتهم دون أن يصلوا
إلى قرار جازم بسبب الحيرة، بينما
كانت لويز صامتة وسطهم، لم تنبس
ببنت شفة. كانت تتأمل صورة تلك
العجوز التي رأتها واقفة في الخلف.
تسارعت نبضات قلبها، وتزايدت
دهشتها، وتلاحقت أنفاسها، ثم خطت
نحو العجوز دون وعي، كأنها غير
مستوعبة لما تراه، خاصة بعد أن
رأت تلك «الكماشة».

خطت نحوها لا إرادياً، وكأن شيئاً
غير مرئي كان يسحبها إليها. بدا لها
المكان خالياً إلا من صورة تلك
العجوز.

قاطع شرودها جاك، فربت على
كتفها منادياً اسمها. التفتت مفزوعةً
مرتعبة، فاستغرب رد فعلها وقال:

— ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟

ابتسمت بتكلف:

— أجل، بخير!

أوماً باقتناع مصطنع.

التفتت حيث كانت العجوز، فإذا
بالمكان فارغ... أخذت تلتفت إلى كل

الاتجاهات باحثة عنها، لكنها لم
تجدها.

التفتت مجددًا، فإذا بإيميلي تقول:

— ما رأيك؟

قالت محاولةً إظهار أنها كانت منتبهة
معهم:

— كما تشائين...

صرخت إيميلي فرحة، وأخذت تقفز
بحماس قائلة:

— هيا إلى البحيرة، أنا من نجحت!
نحن في الطريق يا إبليد...

إيمًا: ليس هذا عدلاً، لم تكن لويز
منتبهة، فهي لا تعرف عمّا كنا
نتحدث، ألا ترين ملامحها...
انظري.

ردت اغليتر:

— لا يهم، أنتم قلتم إنها ستكون
الحكم، وهي اختارتني، لا شأن لكم.
تنهد الجميع.

دافيد بنرفزة:

— هيا إذاً، لا بأس، لن نضيع وقتنا
في النقاش.

اتجه الجميع إلى بحيرة بليد كما كان
الاتفاق.

بدأ الشباب في الشواء، بينما اشتغلت
الفتيات في السباحة بعد أن أصررن
على لويز أن تنزل معهن.

لكن ما إن أنزلت رأسها في البحيرة
حتى رأت تلك المرأة العجوز
المبتسمة المخيفة ومعها كماشتها،
ففزعت وأخرجت رأسها على الفور.

تكررت الحادثة ذاتها مرات متتالية،
فلم تستطع التحمل، وخرجت
متحججةً بأنها اكتفت من السباحة
وستساعد الشباب في الشواء.

كانت تنظر إلى الفتيات وهن يلعبن
بالمياه، يصفعن بعضهن بالماء،
ويتحدین أنفسهن: أيتهن ستبقى وقتًا
أطول تحت الماء، ويضحكن على

كل حادثة مهما كانت صغيرة،
والسعادة تغمرهن.

تنظر إليهن وتتدب حظها، ثم التفتت
إلى الشباب وبدأت تتحدث معهم. لم
تكن قد تعرفت إليهم إلا عن طريق
صديقاتها.

نطقت:

— حسنًا، يبدو أن الفتيات يستمتعن
بالسباحة، فلننشغل نحن بالحديث...
ما رأيكم؟

استغربوا من كلامها، فتلك فرصة لا
تُقدَّر؛ كيف لأحدهم أن يتمكن من
الحديث مع لويزيانا روكفلر بحد
ذاتها؟

مرّت لحظات ذهول قبل أن يقول
جاك:

— إنه لشرف... فليكن.

أكملت لويز:

— لقد كنت مشغولة خلال دراستنا،
فلم تتسنّ لنا الفرصة كي نتعرف إلى
بعضنا جيّدًا، لكن لا بأس، سنلعب
لعبة يتحدّث فيها كلٌّ عمّا يحب وما
يكره، وهو اياتّه، وما يطمح إليه في
الحياة، وأكبر مخاوفه. خمسة أسئلة
ستكون كفيلة بتعارفنا.

سنبدأ بك، يا جاك.

بدأ يتناول من الكباب وهو يستمتع لها.

قال:

— جاك سايمون، حصلت على الماجستير في علوم الفضاء، لم يكن ذلك حلمي يومًا، بل حققت مراد والدي فقط. ها أنا أعطي نفسي كامل الحرية بعد أن أنهيت دراستي. لا أعتقد أن لدي حلمًا محددًا حاليًا سوى أن أقضي حياتي كما أريد، وأستمتع بما تبقى منها عوضًا عن كل ما مضى.

لا أفكر في أمر معين أطمح إليه حاليًا، أما ما أحب، فأحب هذا النوع من الرحلات، وأهوى الاستكشاف،

وأكره الحياة المملة الروتينية الهادئة.
باختصار، شاب مشاكس لا يأبه إلا
بالاستمتاع بحياته.

كان الجميع منصتًا باستمتاع، ثم
هتفوا:

— لك ذلك، نحن معك.

لامست قبضة كل منهم قبضة الآخر
في حركة مرحة.

أخذت لويز رشفة من عصيرها وهي
تقول:

— حسنًا، كان ذلك ممتعًا... ماذا
عنك يا أفريدي؟

قال:

— أمم... تقريبًا مثل جاك. صديق طفولتي، أفريدي دالارانج، أصغر أبناء فيكتور دالارانج. لدي دكتوراه فيما يسمى بعلم الفلك، أهوى تسلق الجبال والتزلج، إضافة إلى عشقي للرماية.

يمكن القول إن دراستي كانت شكلية إلى حد ما، فلم أكن مهتمًا بنوع تخصصي. كرهت المذاكرة، فكان إنّهائي لدراستي أمرًا مفرحًا إلى حد لا يوصف... هذا كل شيء.

ارتسمت على وجوههم ابتسامة، ولامس كل منهم كأسه بكأس الآخر في هتاف مازح:

— نخب انتهاء المذاكرة إذا!

تبع ذلك ضحكة خفيفة، قبل أن يسأل
جاك مستفسراً:

— لكنك لم تحدثنا عن طموحاتك.

رد بنبرة ساخرة:

— أنت أيضاً لم تحدثنا عن مخاوفك.
لم تقل اللعبة إننا ملزمون بالتصريح
عن كل شيء.

اتجه بنظره نحو لويـز، التي أومأت
نافية:

— لا، لم أقل ذلك، لكن من يخفي
شيئاً سيُكشف أمره.

سأل دافيد بترقب ووميض حماس في
عينيه:

— ماذا لو فاز أحدنا؟

أجابت:

— أنا من سيعطيه الجائزة بنفسه.

زاد حماسه حتى شاب صوته وهو
يقول:

— يطلب ما يشاء؟

صمتت قليلاً قبل أن تقول:

— هذا إن تأكدت من صدق ما
يقول، خاصة المخاوف...

نطقت العبارة الأخيرة مع رفع
حاجب وهي تنظر إلى جاك.

تهرب جاك من نظراتها ثم قال:

— ماذا لو جعلناه تحديًا؟ من يفوز
ينل الجائزة. مجرد الكلام يبدو مملاً،
فاقترحي لنا تحديًا، ومن يكسبه يطلب
ما يريد.

قال الأخيرة بنظرة خبت.

أجابت:

— حسنًا، سأفكر في ذلك لاحقًا، لكن
ليس قبل أن يعرّفنا دافيد على نفسه.

قال بغرور:

— معك حق، أراهن أن هذه ستكون
أفضل فقرة في اللعبة.

ثم وقف وسطهم بثقة وقال بفخر:

— دافيد... دافيد إفرانسيسكو، ابن
صاحب شركة إفرانسيسكو.

من عشاق التصميم، أهوى السهر
والحفلات...

قالها مع غمزة مشاغبة قبل أن يكمل
بجدية:

— أطمح لأن تكون تصاميمي سببًا
في ازدهار شركة إفرانسيسكو.

أما المخاوف، فلا أعتقد أن هناك ما
أخشاه لأذكره.

قالها بثقة، بينما كانت نظرات
الإعجاب في عيني لويز مثبتة عليه.

ظلت تنتظر نحوه وهي ترفع كأس
شرابها نحو شفتيها دون انتباه، قبل
أن تصرخ بفرع بعد أن لامستهما
قطعة معدنية خُيِّل إليها أنها خاتم
العجوز، حين ألقت نظرة تفقد على
محتوى الكأس.

استغربوا صراخها، فقالت مدعية ما
لم يكن السبب الحقيقي وراء تلك
الصرخة:

— لا شيء يدعو للقلق، فقط كنت...
كنت أحاول اختبار دافيد لأرى إن
كان حقًا لا يخاف شيئًا أم أن كلامه
مجرد إخفاء لسر خوفه.

قالت ذلك وهي تحاول أن تجعل
نبرتها وحرركاتها ثابتة واثقة ومقنعة.

ابتسم جاك ودافيد، بينما لم يعطِ
أفريدي أي رد فعل.

استأنفت بجدية:

— حسنًا، سنعلن عن التحدي لاحقًا،
كونوا على استعداد.

قاطعتها إيما:

— أي تحدٍّ؟

التفتت إليها قائلة:

— فاتكِ الحديث، سنخبركِ فيما بعد.

ثم أكملت بهمس مع غمزة مكر:

— فأتك الكثير.

أتت كل من ألسا واغليتر بسؤال
مشابه:

— ما الذي تحدثون عنه؟

أجابت الـ ويز:

— لا شيء، إنها مفاجأة الغد،
يمكنكن المشاركة.

— نشارك في ماذا؟ سألت اغليتر.

— غداً ستعرفين. أجابت الـ ويز.

أصررن على معرفة سر المفاجأة،
لكن أحداً من الشباب لم يتفوه بحرف.

تجاهل الجميع الأمر وبدأوا الحديث
عن أمور أخرى، ثم قرروا المشي
قليلاً في مسارات المشي الموجودة
قرب حديقة جبال المذنبات الوطنية
ليكملوا حديثهم أثناء السير.

كان البعض يتحدث عما سيفعله بعد
التخرج، كما لو أن الجميع وُلد من
جديد، بينما اكتفى البعض الآخر
بتأمل مناظر الطبيعة المدهشة في
ذلك المكان.

عادوا إلى المنزل وقضوا الظهيرة
هناك قبل أن يكملوا رحلتهم مساءً.

كان عبور ممر نيناك أول مراحل
التحدي الذي لم تنتظر الويز اليوم
التالي حتى تخبرهم عنه:

— من يعبره أولاً يفز.

كان كل من الشباب يسابق الآخر ولا يفكر سوى فيما ستقدمه الـوزيرـانا
روكفلر للفائز، بينما كانت الفتيات
يهتفن على بُعد منهم، وتلوّح كل
منهن بصورة من تشجعه وتراهن
على فوزه.

كانت الـوزيرـا تجلس بعيداً عن الفتيات،
آخذةً دور الحكم، تراقب بصمت،
ومن وقت لآخر تلتفت إلى صديقاتها
لتداعبن بتلك الابتسامة. لم يكن
عليها سوى رفع صورة الفائز حين
يفوز.

تعالى الهتافات واحتدم التنافس،
والحماس يغمر الفتيات والفتيان معًا،
ثم خُتِمت تلك المرحلة بفوز أفرادي.
قامت الفتيات بمواساة جاك ودافيد
بعد خسارتهما، ورغم أن ذلك
التحدي لم يكن سوى لعبة، فإن
الفتيان أخذوه على محمل الجد
بطريقة ما، وربما كانت الجائزة ومن
سيقدمها هما السبب في ذلك.

انتهت تجربتهم عند ممر نيناك،
وبدأت المرحلة الثانية قبل الأخيرة
من التحدي، والتي كان أول من
يصل إلى قمة أعلى جبال أغلاسير
هو الفائز فيها.

لم تكن لحظات التسلق أقل حماسًا من
سابقاتها، بل كانت الأجواء صاخبة
يملؤها الهتاف وضحك الفتيات من
وقت لآخر. لم يكن أيُّ من
الموجودين يعطي للحياة معنى سوى
أنها للفرح والمرح، «لا شيء
سواهما».

اتخذت الويز دور الحكم كما كانت
تفعل.

اقترب غروب الشمس ولم يفز أي
من الفتیان بعد، وأصبحت قلقة من
اقتراب حلول الليل، لأنه كان يعني
ملاقة أكبر مخاوفها... ما لطالما
حاولت التهرب منه.

طال شرودها وهي تراقب احمرار
أشعة الشمس وهي توشك على
الغروب، فذب الرعب في قلبها، ولم
يعد باستطاعتها التظاهر بالتماسك.
صار القلق جلياً على ملامحها،
فقررت المغادرة على الفور. لم تلق
بالاً لكونها الحكم، وهرولت مبتعدة
عن المكان.

ألقت نظرة على الفتيات قبل أن
تغادر، لتُصعق بتلك اليد التي قبضت
على عنقها في ارتداد طرف.

أخذت تلك اليد تعتصر عنقها بعنف،
تكتم صوتها لشدة الاختناق، وسحبته
مبتعدة عن مكان أصدقائها. كانت لا
تكاد تلتقط أنفاسها الأخيرة،

وصراخات استنجاها مكتومة، ويدها
تلوّح طلبًا للمساعدة دون أن تلفت
انتباه أي من أصدقائها، كما لو أنها
في الخفاء.

بحثت عن صوتها كثيرًا ولم تجده،
قبل أن تجد نفسها فجأة تصرخ بأعلى
صوتها:

— ألسا!!!

التفتت الفتيات نحوها، فإذا بها مرمية
على بُعد منهن، تسعل وتشهق بعمق
 وإجهاد، كما لو أنها عادت من الموت
للتو.

هرولن نحوها، لتُصعق باختفاء اليد
التي كانت تعتصر عنقها... لكن
كيف؟

كيف وهي متأكدة من حقيقة ما
حدث؟

كيف وهي لم تستطع التقاط أنفاسها
بعد؟

كيف وقعت أرضًا إذن؟

لا يمكن أن يكون الأمر مجرد
خيال... لا يمكن...

أخذت الفتيات يتفقدن أحوالها
ويسألنها عن سبب وقوعها
وصرختها. ورغم ثقتها بما حدث،

فإن خوفها من أن تُرمى بالجنون
دفعها إلى إنكاره، فاكتفت بالقول إن
التواء كاحلها كان سبب سقوطها،
وإن صرختها لم تكن سوى ردة فعل
مبالغ فيها.

لم يكن جوابها مقنعًا بالكامل، غير أن
تصديقه كان الأسهل، فلم تُصرّ
إحداهن على الاستفسار أكثر عن
الأمر.

عادت لما كانت تقوم به، وقبيل حلول
تلك الليلة بلحظات أعلن فوز أفرادي
ثانيًا. لطالما كان تسلق الجبال من
اختصاصه، ورغم أن الجميع تأكد
من فوزه، فإن الويز أصرت على

مواصلة التحدي حتى المرحلة
الأخيرة، لسبب لم تُفصح عنه.

لم تكن هذه الحركة غريبة عن
غموضها المألوف، ولم تُعلن ما إذا
كانت قد أعلنت فوز أفرأيدي أم لا.

لم يكن من جاك ودافيد سوى
الاستعداد للمرحلة الأخيرة، لعل
قرارها يكون فرصة فوز لأحدهما،
غير أنها لم تفصح أيضاً عن التحدي،
وتعمدت تأجيله.

بعد أن أرخى الليل سدوله، أوى
الفتية إلى أحد الأماكن المجاورة
للجبال ونصبوا خيامهم هناك. أشعلت
النيران للتدفئة، بينما شغلت الموسيقى
ليختار كل منهم شريكته في الرقص.

فضّلت الويزيانا تجنب حدوث أي
أمر مفزع كأمرها المعهودة،
فاكتفت بالمشاهدة.

تحسّست يدها شيئاً صلباً في تلك
الرمال. ألقت نظرة، فإذا به الخاتم.
أمسكت به وأمعنت النظر لتتأكد.
فكرت ملياً وهي في حيرة من أمرها:
هل عليها ارتداء ذلك الخاتم كي
تنتهي القصة، أم تنتظر حتى تنام
مجدداً؟

أطالت النظر إليه قبل أن تلقي به في
النار قائلة:

«وربما يكون ارتداء هذا الخاتم أسراً
لي في ذاك العالم إلى ما لا نهاية.»

واصلت مشاهدة رقص الشباب قبل
أن تنتهي فقرتهم، ويقوم كلُّ منهم
بتقليد إحدى الأغاني؛ حيث يُوقف
تشغيل الأغنية ليكمل هو كلماتها من
عنده وبصوته، كنوع من التسلية.

واصلوا سهرتهم تلك مع تنوع
الألعاب والتحديات بين موسيقى
ورقص، إلى أن صارت الساعة
الثالثة صباحًا. أوى الجميع إلى
الخيمة للخلود إلى النوم؛ فلديهم رحلة
ليكملوها يوم غد. وافقتهم الويزيانا
الرأي، فقد كان النوم وقتها أكثر ما
تحتاجه.

ألقت نظرة أخيرة طويلة إلى النيران
المشتعلة، متأملةً الخاتم، قبل أن تأوي

إلى خيمتها. وبعد لحظات من التفكير المفرط، خلدت إلى النوم لتكمل رحلتها في عالم اللا أصابع...

وجدت نفسها في المكان ذاته الذي جُلبت إليه من قبل، لكن هذه المرة مع صمت. لو امتزج به ذلك الصراخ لكان أرحم، لكن مع العتمة ذاتها، كانت تقف فيما هو أشبه بممر مضاء وسط الظلام.

أخذت تسير في ذلك الظلام نحو وجهة مجهولة، بينما كانت رهينة المخاوف، واقفة، أنفاسها متسارعة، ونبض قلبها سريع كأن قلبها همّ بالتوقف لسرعة خفقانه.

طالت فترة سيرها تلك مع ذلك
الرعب، إلى أن قاطع صمتها ذلك
الصراخ، فأعاق سيرها رؤية تلك
العجوز، التي لم تكن كما كانت، بل
تضاعفت روعة شكلها أضعافاً،
وكانها لم تعد تتظاهر بالطيبة كما
كانت تفعل سابقاً، وكأن حدثاً ما قد
أيقظ الغضب بداخلها.

صرخت في وجهها صرخة كانت
كفيلة بجعل قلبها ينتفض رعباً.
تجمدت للحظات، واقفةً مكانها دون
استيعاب، تبتلع ريقها خوفاً، ثم همّت
بالفرار.

فالتفتت، وما إن التفتت حتى تكرر
نفس المشهد أمام عينيها، وكأن قوة

عجيبة جعلت وحش تلك العجوز
ينتقل بهذه السرعة إلى الاتجاه
المعاكس. عندما تشنجت جلّ أعضاء
لويزيانا، لم تبقَ بجسمها خلية إلا وقد
بلغ فيها الرعب ذروته.

استمر ذلك للحظات، ثم تذكرت أن
هذا الكابوس ربما له علاقة بمقلب
صديقتها اليوم. للحظة شعرت
وكانها مستيقظة وتستطيع التفكير في
تشابك الأحداث بطريقة ما.

لاحظت أن تلك العجوز المخيفة
والمرعبة بدأت تقترب، لكن هذه
المرّة معها مطرقة وسكين، كأنها
أرادت ألا يقتصر الألم على مجرد
قبضة كماشة.

حاولت لويزيانا الفرار، مجربةً جميع
جوانبها الأربعة، وفي كل مرة كانت
النتيجة نفسها: صرخة تطرد
الاطمئنان من قلبها طردًا.

عند آخر محاولة لها، لم تكن تملك
حلًا سوى الاستسلام، فوقعت أرضًا
فاقدة الآمال، مسلمة نفسها لمصيرها.
بعد أن تيقنت أن تلك اللحظة لحظة
مواجهة حتفها لا محال، سمعته
صوتًا يهمس في مسمعها قائلاً:

«البسي الخاتم، وسينتهي كل شيء.»

فكرت قليلًا، ثم تذكرت ذلك الخاتم
وحيرتها سابقًا: ما إن كان سيأسرها
في ذلك العالم أم سيحررها منه. ثم

داهمها الموقف، فلم يكن لها سبيل
للنجاة سوى ذلك الخاتم اللعين.

فنطقت مسرعة، خشية الهلاك:

«سأل بس الخاتم!»

بدأت العجوز تهدأ من ثورتها رويدًا
رويدًا، ثم ابتسمت مطمئنة واختفت
مودعة.

لبثت لويزيانا تلتقط أنفاسها، حتى
سمعت أصواتًا داعيةً لها للاستيقاظ.
ابتسمت بارتياح، وفتحت عينيها، فإذا
بصديقتيها تقفان فوقها مستغربتين من
حالتها.

نهضت على الفور، معتدلةً في
جلستها، ثم سرعان ما ألقت نظرة
على يدها، فإذا بالخاتم في بنصرها.

سيطرت عليها الدهشة للحظات،
وأطالت النظر تتأمل ذلك الخاتم، لا
تدري إن كان الأمر جيدًا أم مخيفًا،
واقعيًا أم لا.

دخلت صديقتها لتطمئنا عليها، وبدتا
مرتابتين، ضائعتين، مشتتين. مرت
لحظات لم تنتبه لهن فيها، ثم
تظاهرت بأنها بخير كما اعتادت.

قالت إحداهن:

«ما بك؟ مرتعبة وكأنك رأيت
كابوسًا!»

ابتسمت حين ذكرتا الكابوس، ثم
طمأنتهن، مُخفيةً سر كوابيسها.

شمس يوم جديد تشرق، وفقرة جديدة
من رحلة أغلاسير يتم تدوينها. كان
الفتية قد التقطوا الكثير من الصور،
وبينما تمعن الـ ويز النظر في إحداها،
تُصعق بذلك الرجل الغريب الشكل
الذي كان يقف خلفها في الصورة.

متأكدةً أن أحدًا غريبًا لم يكن معهم
في ذلك الوقت، التفتت إلى مكان
الالتقاط فلم ترَ شيئًا. أقنعت نفسها أن
ذلك الكابوس قد انتهى بالفعل، وما
تراه الآن لا يتعدى كونه هلوسة، لذا
أكملت يومها مستمتعةً به مع

أصدقائها في تلك الرحلة وما
صاحبها من مغامرات.

قررت إكمال التحدي، وقررت أن
تكون المرحلة الأخيرة هي التي تحدد
الفائز بغض النظر عن نتائج
المراحل السابقة، لينال جاك فرصة
الفوز من جديد، فرصةً منحته الحق
في أن يطلب أي شيء من الويزيانا.

ولم يخطر له أن يطلب منها في ذلك
الوقت سوى قبلة يعتبرها أكبر جائزة
له، ولم تكن الويز تتبع ضوابط قد
تمنعها من قبول ذلك الطلب، فنفذته
دون اعتراض، غير أن ذلك لم ينل
إعجاب أحدهم، وربما سيجعلها تدفع
الثلث غاليًا فيما بعد.

حين بقيت الويز بمفردها، شعرت
فجأة بيد غير مرئية تعتصر عنقها
مجددًا. حاولت المقاومة بشدة،
ليحدث عراك محتدم.

حاولت جاهدة إقناع نفسها أنه مجرد
خيال، وبعد عراك دام للحظات
اختفت تلك اليد. توقف صاحبها عن
خنق الويز، تاركًا خلفه خدوشًا ملأت
عنقها.

لم تستطع منع نفسها من وضع يدها
مكان الألم المبرح الذي خلفته تلك
المخالب غير المرئية. حين أزالَت
يدها عن مكان الألم، رفعتها أمام
عينيهما لتُصعق بكونها مخضبة؛ آثار
دماء تغطي أصابعها، كيف؟!!

لم تصدق. اتجهت بسرعة نحو
المرأة: آثار مخالب متوحشة ترسم
على عنقها، ودماء تغطيه مع يدها.
ما الذي يحدث بحق الجحيم؟!

لا تزال غير مصدقة، ذهبت إلى
صديقاتها تسألهن ما إن كانت إحداهن
قد رأت شيئاً غريباً على عنقها،
ليجبنها بنفي تام، حاصراتها بين يقين
وجنون.

عادت إلى المرأة، وتحت سطوة
الحيرة والرعب والضياح، حدثت
نفسها سائلة:

ما الذي يحدث معي؟

ألم ينته ذلك الكابوس اللعين بارتدائي
لذلك الخاتم؟

ما هو ذلك العالم أصلاً؟

هل هو حقًا عالم اللا أصابع؟

إذاً، كيف لي أن أرتدي خاتمًا منه؟
وكيف لذلك الشخص — إن كان
ينتمي إليه — أن يخدشني بأظافره؟
كيف ولا أصابع لديه؟!

هل تحاول تلك العجوز إخفاقي أم
ماذا؟

كومة أسئلة لم تجد لها أجوبة، وسؤال
آخر يشغل ذهنها الآن: هل سيجيب
نومها مجددًا على تلك التساؤلات؟

اعتادت اختلاس الأمان فترة
استيقاظها بين انتهاء قصة وابتداء
أخرى، لكنها الآن لا تفهم ما الذي
يحدث بحق!

انتهت رحلتهم في أغلاسير،
ووجهتهم الموالية الآن ستكون
ميامي.

الليلة التي سبقت سفرهم، كانت الـ ويز
قد عاهدت نفسها على أن تبحث عن
إجابات وسط كابوسها هذه المرة.

الـ ويز:

اعتقدت في تلك الليلة أنني سأجد كل
الإجابات بمجرد تحرري من ذلك
الصمت الذي ظننته الحاجز الذي

يعيق فهمي لكوابيسي، لكن ما تأكدت
منه تلك الليلة أنني سأظل عالقة وسط
تلك الدوامة الغامضة طيلة حياتي،
سأظل أسيرة لها، وأن فك أسري
سيكون أصعب بكثير مما تخيلت.

في جو مظلم كغيره، لمحت ذلك
الشعاع الذي لطالما قادني نحو
الهلاك، لكنني لا أزال أتبعه في كل
مرة.

كانت صورة مشوهة تتضح كلما
اقتربت منها، وحين وقفت أمامها
اتضح أنها كانت صورتي. أجل،
كانت أنا، لكنها لم تكن تشبهني. كان
شكلها غريبًا، تمامًا كشكل تلك
العجوز التي حُفرت في ذهني كالنقش

في الصخر، وكأنها تود أن تقول
بطريقة غير مباشرة إنها قد سحبتني
بالفعل إلى عالمها.

أتيت إلى ذلك المكان وأنا مصممة
على ألا أغادر قبل الحصول على
أجوبة لأسئلتني، ولكن قبل أن أنطق،
تحدثت الصورة في المرأة:

"أهلاً بك كخطيبة لمياخوت."

ترددت تلك الجملة في ذهني،
وحاولت أن أجد لها تفسيراً، ثم
تذكرت الخاتم. نظرت إلى يدي،
فكان الخاتم لا يزال في إصبعي،
وقبل أن أرفع رأسي لأسأل الصورة
في المرأة، اختفى كل شيء. اختفت
المرأة واختفت الصورة معها،

وصرت في متاهة أركض فيها
كالمجنونة باحثة عن صورتي، أو
عن العجوز، أو عن أي شيء
يوصلني إلى الحقيقة.

لأول مرة أتمنى العثور على أحد في
كابوسي، ولأول مرة أتمنى ألا
ينتهي، ولأول مرة لا أريد أن
أستيقظ.

لكنني استيقظت.

أحدهم أيقظني وأنا لا أزال في تلك
المتاهة.

كانت إيما تخبرني أننا نتأهب
للرحيل، وأن عليّ تجهيز نفسي.
قضينا الليلة الماضية في المنزل الذي

جهزته لناخذ فيه استراحة من
المخيم.

جهزت نفسي مسرعة استعدادًا
للرحيل، وحين مررت بالمرأة
توقفت. ألقيت نظرة عليها فوجدت
الجروح قد اختفت. تذكرت صورتي
في الكابوس، فأمعنت النظر في
المرأة ثم نقلت بصري إلى الخاتم في
يدي.

ترى، هل ما قالته تلك الصورة
صحيح؟

هل خُطبت لجني بعد ارتدائي لهذا
الخاتم؟

ربما تلك العجوز أتت لتأخذني
لحفيدها، ربما غار مما فعله جاك،
ربما...

أوف، لا أصدق أنني أتفوه بخرافات
كهذه. هذا لا يشبه المنطق في شيء.
إلى متى سيبقى تفكيري مضطرباً
هكذا؟

أظن أن الحل هو ألا أفكر، وألا أهتم،
وألا أصدق أي شيء أراه.
ولكن كيف؟

أخذت شهيقاً عميقاً ثم زفيراً.

يقول علم النفس إن العقل يصدق ما
يوهمه الإنسان به. سأحاول تجربة
هذه النظرية.

ابتسمت حين تذكرت علم النفس. لا
أصدق أنني درستة حتى التخرج،
وها أنا عاجزة عن تحليل ما أشعر
به.

عمومًا، هذه أول مرة أزور فيها
ميامي، وهذا ما سأفكر فيه. لا شيء
غيره...

انطلقنا نحو ميامي في ولاية فلوريدا.
كانت مناظرها فاتنة، ومثالية للسياحة
بحق. قضيت الكثير من وقتي على
شواطئها، وترددت إليها مرات عدة.
كان مناخها يفوق الروعة بمراحل،

وكانت الأجواء هناك لتكون أجمل ما
يمكن عيشه لولا الحال التي كنت
عليها.

كنت أحاول ألا أفكر في أي مما
أخشاه، وخشيةً من مواجهتي
لمخاوفي لم أذق النوم منذ قدمنا إلى
ميامي. فبعد انتهاء الكابوس السابق،
خشيت أن يبدأ آخر أسوأ منه.

حجزنا غرفاً في أشهر الفنادق هناك،
ومارسنا بعض الأنشطة في
الكازينوهات، من ليالي المقامرة
والحفلات التي كانت تستنزف بقايا
طاقتي. امتزجنا بالثقافة اللاتينية
هناك، ونظمنا الكثير من المسابقات
والتحديات.

كان ذلك كله ممتعًا لهم، بينما كان
مرهقًا لي.

كانت قواي تخور يومًا بعد يوم،
وتتراجع مقاومتي. تصنعت القوة
أمامهم، وكنت أوزع ابتسامات
مصطنعة طوال الوقت، وأتظاهر بأن
كل شيء طبيعي.

كانت الحياة الليلية في ساوث بيتش
مغرية. كان من الممكن أن أعيش
أجمل لحظات حياتي هناك، ولا أزال
صامدة على أي حال.

شاركوني المشي على الشاطئ بعض
المرات. كانت الرحلة بحريةً بشكل
من الأشكال. كنا نتجه إلى مطاعم
للمأكولات البحرية مثل "Joe's"

Stone Crab" المشهور بسرطان
البحر، ونكسر الروتين بأخرى
مختلفة مثل "Zuma" المشهور
بالسوشي.

لم تكد رحلتنا في ميامي تنتهي حتى
انتهت معها ذخيرة صمودي.

حين كنا في طريقنا إلى الوجهة
الموالية، أخذت قيلولة إجبارية. كنت
مرهقة بشكل يصعب مقاومته، حتى
إن أصدقائي بدؤوا يلحظون أن أمرًا
غريبًا يحدث معي، رغم محاولتي
إثبات العكس.

بدأت بمواعدة جاك، وهو شيء جديد
أردت تجربته؛ البحث عن الأمان
فيه. سبق أن بحثت عنه في

الأصدقاء، وفي الاستكشاف، وفي
الرفاهية، لكنني هذه المرة أردت
تجربة الحب بدلاً من ذلك.

كان جاك يكن لي بعض المشاعر،
فقررت أن أعطيه — وأعطي نفسي
— فرصة.

المهم، أين كنا؟

آه، الغفوة...

أجل، غفوت دون قصد، لأجد شيئاً
أسوأ من أي شيء رأيته سابقاً
ينتظرني.

أسير وسط الأشجار الكثيفة بخطوات
مرتعة، في غابة مظلمة وقد اعتقل

الخوف أنفاسي. أحاول التقاطها بينما
تتسارع نبضات قلبي بجنون.

واصلت العدو في الظلام، ثم تعثرت
بشيء ما.

بدأت رؤيتي تتضح.

تمكنت من رؤية ذلك الشيء.

لقد كانت جثة.

ولم يكن هذا ما صعقني، بل معرفة
صاحبة الجثة هي ما أزعجني.

كنت أعرفها.

كانت ألسا.

مرمية هناك، والدماء ترسم أخاديد
مبتعدة عنها، وكأنها تعرضت
لافتراس وحشي وعنيف.

كان وضوح الرؤية نسبيًا حتى تلك
اللحظة، لكن حين رفعت نظري
رأيت ما هو أبشع.

كانت جثث البقية متكومة على بعد
منها، خمس جثث بعضها فوق
بعض.

كنت أعرف صاحب كل واحدة منها.
كلهم أصدقائي.

كلهم مُزقوا بالطريقة ذاتها.

وخلفهم كانت تقف تلك المرأة.

كانت ملتفتة إلى الاتجاه المعاكس،
ولم أكن أرى سوى ظهرها.

مرت لحظات وأنا تحت وطأة
الصدمة، لا أقوى على الحراك، ثم
تحاملت على نفسي واستجمعت
شجاعتي، وبدأت أخطو نحوها ببطء
وحذر.

كانت تحمل في يدها كأسًا امتلأت
بمشروب أحمر يشبه الدماء.

وحين اقتربت، أيقنت أنه دم.

كانت ترتشفه ببرود.

ثم، وقبل أن أصل إليها، قالت بانتشاء
بعد أن أخذت رشفة من الكأس،
وبصوت يحمل بحة مخيفة:

"تعال لي لتشاركني... لا يزال
طازجًا."

توقفت.

ذلك الصوت...

لقد كان صوتي.

أنا متأكدة من أنه صوتي.

ولكن كيف؟

كل ما كان مختلفًا فيه هو تلك البحة
المخيفة.

اقتربت منها أكثر.

وضعت يدي المرتجفة على كتفها.

فالتفت إليّ.

كانت تلك لحظة اقتلّع فيها قلبي من
بين أضلعي بعنف.

كانت أنا.

لكن بشكل مرعب.

بأنياب طويلة، وفم واسع متوحش
يتقاطر دمًا، وعيون احتوت رعب
العالم بأسره في أعماقها.

لم تكن تشبه أي شيء رأيته من قبل.

صرخت بأعلى صوتي مذعورة.

ثم فتحت عينيّ.

كنت بين أصدقائي في الرحلة،
وكانت نظراتهم تقول إن صرختي لم
تكن جزءًا من الكابوس وحده، بل
كانت واقعًا أيضًا.

اجتاح الشك قلوبهم.

صرخاتي المتكررة، وشرودي الدائم،
أثارا فيهم شيئًا لم أستطع إخماده.

ألسا هي أقربهم إليّ.

إن لم أخبرها، فلن أخبر غيرها.

لكنني لست مستعدة لخطوة كهذه.

لا أزال أواجه صعوبة في الامتزاز
بهم، ولا أزال أضع حواجز لا أجرو
على هدمها.

وهذا ما يجعلني أقلق بشأن علاقتي
مع جاك.

أشعر بأنها تحطم تلك الحواجز التي
بنيتها بعناية.

لا أصدق أنني واعدته بهذه البساطة.

ولا أصدق أن تلك الكوابيس جعلت
من الويزيانا روكفلر، بما تملكه من
قوة وكبرياء، امرأة ضعيفة تبحث
عن رجل تحتمي به.

وصلنا إلى هيوستن في ولاية
تكساس. حجزنا في أحد فنادقها
الفاخرة، لكنني لم أكن أفكر في
الفندق ولا في المدينة.

لا أزال أفكر في ذلك الكابوس
اللعين.

هذه أول مرة أرى جثثًا في كوابيسي
منذ فترة طويلة.

كانت المرة الأولى قبل سنوات
عديدة، حين رأيت تلك الطفلة.

كانت قد قُتلت بوحشية وأُقيت جثتها
قرب تمثال الحرية. كانت ممزقة
بشكل مفرع، لكنها لم تكن بالفضاعة
التي رأيتها في هذا الكابوس.

أخبرت أختي بالأمر حينها.

كنت أعاني وقتها من صدمات كثيرة
جعلت أختي تخشى أن يكتشف أهلنا
حالتي. وكنت متيقنة أن ما رأيته
حقيقة، مما جعل وضعي يزداد
سوءًا.

لذلك قررت أختي اصطحابي للتحقق
من الأمر.

لم تكن هناك أي جثة، لكنني لم أقتنع.

ظللت مصرة على أنها موجودة
هناك، وظل الكابوس نفسه يتكرر.

كانت حالتي تسوء أكثر في كل مرة،
ومع ذلك كانت زيارتي للتمثال أشبه
بمسكن مؤقت.

بقينا أنا وأختي نتردد عليه يوميًا، ولم
يتغير شيء...

حتى ذلك اليوم.

اليوم الذي تأكدت فيه شكوكي.

قبل وصولنا، كان أحد المتنزهين قد
عثر على الجثة في ذلك المكان.

حاصر رجال الأمن الموقع، ولم
يُسمح لنا في البداية باجتياز الحدود
التي رُسمت للتحقيق، لكنهم سمحوا

لي لاحقًا عندما أخبرتهم أنني أعرف
الطفلة.

كنت قد التقيت بها من قبل في
سنترال بارك.

كان ذلك المكان الوحيد الذي أتردد
إليه بمفردي.

كانت لطيفة معي، وصرت أزوره
أكثر من أجل لقائها.

أحببتها رغم أنني لم أكن ممن يحبون
الأطفال.

كانت أحاديثها تخفف من توترتي
الدائم، ولهذا كان رؤيتها في الكابوس

بذلك الشكل أمرًا يفوق قدرتي على
التحمل.

أخبرت الشرطة بكل ما أعرفه عنها،
وبفضل مكانة أبي إضافة إلى ذلك،
سُمح لنا برؤية الجثة.

صُعقنا حين رأيناها.

كانت الطفلة نفسها.

بالهيئة ذاتها التي رأيته في الكابوس.

بقيت فترة طويلة عاجزة عن التعايش
مع موتها، ولا تزال قضية قتلها
غامضة حتى الآن.

ولهذا أخشى أن يلقي أصدقائي
المصير ذاته.

فكرت طويلاً في طريقة يمكن أن
تتقذهم، ولم أجد سوى تجنب أي
مكان توجد فيه غابة، خشية أن
يتحقق ما رأيته.

أدمعت عيناى حين تذكرت عجزى
عن إنقاذ تلك الطفلة.

مذ رأيت الكابوس لم ألتق بها.
كررنا فى هيوستن ما فعلناه فى بقية
المدن.

نستمتع بكل معلم سياحي فيها،
وأموت أنا فى الليل ألف مرة بروية
ذلك الكابوس المتكرر، ثم أوزع
ابتسامات زائفة متظاهرة بالسعادة.

لم تتطور علاقتي مع جاك إلى الحد
الذي جعلنا نتشارك الغرفة نفسها.

كان لكل منا غرفته المنفصلة، شأنه
شأن البقية.

في كل صباح كنا نتجه إلى وجهة
جديدة.

زرنا مطاعم كثيرة، متنوعة بين
مطاعم الشواء التقليدية والمطاعم
المتخصصة في المأكولات البحرية،
كما زرنا العديد من المتاحف التي
كانت المدينة زاخرة بها.

وكثيرًا ما شاركنا في فعاليات فنية
رغم جهلنا بها.

كنا نريد فقط تجربة ثقافات جديدة.

مرت الأيام سريعًا بالنسبة إليهم.

أما أنا، فكانت عقارب ساعتني تتوقف
عند كل ليلة.

عند كل كابوس.

مع كل رعب كنت أشعر وكأنني
عشته عمرًا كاملاً.

في حفلات الشواء، وأثناء استمتاعهم
بها، كنت أتخيل وحشي وهو يقطع
أعضاءهم قبل أن يشويها، ثم يدعوني
لمشاركته أكلها.

كان الخوف يمزق أحشائي بينما
يغمر الفرح قلوبهم.

واستمر الحال كذلك أيامًا.

حتى توجهنا إلى شيكاغو.

حيث الفن المعماري في أبهى
صوره.

تجولنا كثيرًا بين مبنى وآخر.

زرنا حديقة ميلينيوم.

كنت أعشق الحدائق، وأحب مشاهدة
المساحات الخضراء والبساتين التي
تحتضنها.

نقضي نهارنا في التجول، ثم نعود
إلى فندق إقامتنا، الذي كان أكثر
روعة من أي فندق زرناه من قبل،
بخدمته المتقنة وإطلالاته الخيالية.

كنت أقف كل صباح أمام نافذة
غرفتي أتأمل المشهد.

أنظر إلى الأفق وأفكر في اتساع هذا
العالم، وفي كثرة الأشخاص الذين
يعيشون حياتهم دون أن يعكر الرعب
صفوها كما فعل بحياتي.

بينما لا أجد أنا موطئ قدم أشعر فيه
بالأمان.

كثيرًا ما أسأل نفسي:

لماذا أنا؟

لماذا يسلبني الرعب أجمل ما في
حياتي بينما تُزهر حياة أصدقائي أمام
عيني؟

أليس في ذلك ظلمًا لي؟

كالسابق، مرت الأيام كما كانت تمر
من قبل، ثم اتجهنا إلى سان
فرانسيסקو لمشاهدة جسر البوابة
الذهبية. لم تكن رحلتنا لتكتمل دون
رؤيته.

قضينا عدة أيام هناك، ثم اتجهنا إلى
لوس أنجلوس. لم تكن أقل جمالًا من
الأماكن السابقة، ولم يكن خوفي أقل
مما كان عليه في الأيام الماضية.

بعدها انتقلنا إلى لاس فيغاس في
ولاية نيفادا.

أحيانًا أشعر أن سرعة تنقلنا بين
الأماكن تعني وجود شيء مروع
ينتظرنا في النهاية.

لكنني أواصل مرافقة البقية دون
اعتراض.

فاجأني جاك بعشاء فاخر في مطعم
"Joël Robuchon" الفرنسي
للشيف الشهير جويل روبوشون.

كانت أمسية لا تُنسى، عززت علاقتنا
أكثر، ولا أخفي عليكم أنها أشعرتني
بشيء من السعادة.

كانت لحظات فريدة عشتها مع جاك
في ذلك المطعم.

كما ترددنا كثيرًا على مطعم " é by José Andrés".

ولأول مرة بدأنا ننفرد ببعضنا في
نزهاتنا دون اصطحاب البقية.

بعد أيام، أعلننا عن علاقتنا.

لا أدري لماذا شعرت يومها أن ألسا
كانت على دراية بالأمر مسبقًا، لكنها
أجابت بالنفي حين سألتها.

تجاهلت ذلك الإحساس، لكن مع
مرور الوقت بدأت أشعر أن ثمة أمرًا
غريبًا بين ألسا وجاك.

وسرعان ما أقنعت نفسي بأن جاك
ربما أراد التعرف عليّ أكثر من

خلالها، فهي صديقتي المقربة
وتعرف عني الكثير.

أما البقية فقد فاجأهم الخبر.

لم يكن من المتوقع من شخصية تملك
كل ذلك القدر من الغرور والكبرياء
أن ترتبط بهذه السهولة.

في لحظة ضعف اتخذت ذلك القرار.

ثم انجذبت إلى جاك فيما بعد.

واصلنا تجولنا في لاس فيغاس. قمنا
بزيارة برج ستراتوسفير، وترددنا
بين منتجعاتها. كانت فرصة جيدة
لأخذ قسط من الراحة بعد الإرهاق
الذي سببه حماسنا المفرط وتنقلنا

السريع. كان الاستجمام هناك ذا طعم مختلف.

تنقلنا بين منتجع جبل تشارلستون وريد روك كانيون وسبرينغ ماونتن وغيرها، ورغم أننا لم نفرط هذه المرة في التجول، فإن الرحلة لم تخلُ من بعض الأنشطة المسلية كالتزلج والتسلق.

بعد زيارة عدة مدن صاخبة، اتجهنا إلى بعض الأماكن الهادئة، ثم عدنا مجددًا إلى صخب لوس أنجلوس.

حالتي وفزعي المتكرر في منتصف الليل صارا يعيقان نوم جاك.

كنا نقيم في الغرفة ذاتها، ولم يُظهر
أي انزعاج، لكن ذلك لم يخفف
خوفي.

بدأت أخشى أن يتركني.

تقربه الزائد من ألسا جعل الشك
ينتابني، ويزداد في كل مرة أراهما
قريبين من بعضهما.

ثم أقنع نفسي بأن جاك إن خذلني،
فصديقتي المقربة لن ترتكب الذنب
ذاته.

العلاقتان لا تشبهان بعضهما.

أقمنا في فندق ماندالاي، ومجددًا
حجزت أنا وجاك الغرفة نفسها.

كانت الأمور تسير بشكل جيد...

قبل أن يحين موعد جحيمي الذي يبدأ
فور إغماضي لعيني.

أعتقد أن الناس سموه كابوسًا للتميز
بينه وبين الأحلام والواقع، لكن
الثلاثة تحمل الاسم ذاته بالنسبة لي.

لذا لن أسميه كابوسًا بعد الآن.

اعتدت تجاوز الحدود المنطقية
المرسومة بينه وبين الواقع.

لذلك سأطلق عليه اسم:

"المعتاد".

عادتي السيئة التي ترفض الإقلاع.

سيكون اسمًا مناسبًا له.

في متاهة كبيرة مظلمة، تتخللها
إضاءة خافتة، أخذت أتلفت حولي
كمن وجد نفسه على كوكب آخر.

أحاول فهم المكان.

ثم انقطع تأملي بصعقة مفزعة جعلت
قلبي يهيم بالتحرك من قفصي
الصدري.

كانت هناك مجموعة من الكائنات
الغريبة.

تشبه البشر نسبيًا.

تسير نحوي متخذة هيئة العقرب.

تركض وأقدامها وأيديها تلامسان
الأرض، بينما ارتفعت بطونها إلى
الأعلى وانقلبت رؤوسها.

كانت تكشر عن أنياب طويلة حادة
كالسيوف، ملطخة بالدماء.

ويشع الشر من عيونها المتعفنة
كعيون الجثث.

وقفت للحظة لا أستوعب ما تراه
عيناى.

ثم أدركت أن روحي محمولة على
أعناقهم وهم يتجهون نحوي.

سينقضون عليّ في أي لحظة.
ركضت.

ركضت بأقصى سرعة احتملتها
قداي.

مرت لحظات قبل أن ألمح جماعة
واقفة أمامي على بعد أمتار.

وحين اقتربت منهم اكتشفت أنهم
أصدقائي.

أسرعت أكثر لأستجد بهم.

كان جاك يقف في مقدمتهم، وكأنه
يترأسهم.

وتقف بجانبه...

لم أعر الأمر اهتمامًا.

فقد كانت النيران تشتعل في صدري
من شدة الركض.

تسارعت أنفاسي حتى كدت أختنق.

كانت طاقتي توشك على النفاد، ولم
يعد يفصلني عن النجاة سوى
خطوات قليلة.

سقطت من التعب.

ثم استعادت عيناى شيئاً من التركيز
سريعاً.

ألقيت نظرة خلفي.

كانت أعين تلك الكائنات تلمع كما لو
أنها تشم دمي.

جمعت شتات نفسي، واستجمعت ما
تبقى من قوتي، وبعد كفاح لم يدم
طويلاً قطعت المسافة الأخيرة.

صرخت مستجدة.

وتوسلت إليهم أن ينقذوني من تلك
الوحوش.

لكنني لم أتلق أي رد.

بدوا كأنهم نُومُوا مغناطيسيًا.

أو كأن استنجادي لم يكن يعني لهم
شيئاً.

وقفت أمام ألسا.

وكل آمالي معلقة بها.

قلت بصوت واهن:

"أنتِ لستِ كالبقية.

أعرفك جيدًا.

لن تطعنيني في قلبي بهذه القسوة،
أليس كذلك؟"

لم تُجب.

لم تنطق بكلمة واحدة.

كأن ما أقوله لا يعنيها.

نظرت إلى الخلف.

كانت الوحوش قد أصبحت قريبة
جدًا.

التفت بينهما.

بين الوحوش من جهة، وألسا من
جهة أخرى.

وتوسلت إليها مجددًا:

"أرجوك..."

افعلي أي شيء قبل أن يلتهموني."

ظلت على برودها.

ثم...

أضاء الشر في عينيها.

وكشرت عن أنياب متوحشة.

وانقضت على عنقي.

غرست أنيابها في الجانب الأيمن
منه.

وفي تلك اللحظة أيقنت أنها الخطر
نفسه.

لكمتها بكل ما أملك من قوة.

فسقطت بعيدًا عني.

لكن البقية فعلوا الأمر ذاته.

تركت ألسا جرحًا عميقًا في عنقي.

وجرحًا أعمق بكثير في قلبي.

وجدت نفسي محاصرة.

من جهة، وحوش بشرية أعرفها
جيدًا.

ومن الجهة الأخرى، وحوش غريبة
لا أعرفها.

وقفوا جميعًا على بعد خطوات مني.
ثم أطلقوا زمجرة مرعبة.

كانت عيونهم تتوهج بضوء أحمر،
ويقبع الشر في أعماقها.

بدوا وكأنهم ينتظرون لحظة واحدة
فقط.

اللحظة الحاسمة.

حينها أدركت الحقيقة.

لم يكن هناك بشر في ذلك المكان.

الجميع وحوش.

أطلقت صرخة مدوية.

كأنها آخر صرخة سأطلقها في
حياتي.

ثم استيقظت.

استيقظتُ والجزع مستوطنًا كل خلية
من جسدي، وبدأتُ أقلب نظري يمنةً
ويسرةً للتأكد مما إذا كان ما عشته
مجرد معتاد أم أنه حقيقة.

استيقظ جاك هو الآخر مستفسرًا عن
سبب استيقاظي في ذلك الوقت،
فأومأت له مطمئنة، وأخذت كوب

ماء أفرغته في جوفي لعلّه يهدئ تلك
النيران الملتهبة هناك.

اتجهت إلى الحمام على الفور لأرى
المرأة، وما جعلني أوشك على فقدان
عقلي آثار أنياب ألسا على عنقي.

لم أستطع تصديق ما رأيته، فعدت
مسرعة إلى الغرفة وأيقظت جاك
مجددًا، ثم قلت وأنا لا أريد منه أن
يلاحظ خوفي:

- هناك شيء عالق في شعري قرب
عنقي، هلا ألقيت نظرة؟

بدت ملامح الاستغراب على وجهه،
لكنني تجاهلت ذلك، فقد كان كل ما

يشغلني وقتها ما إن كانت تلك اللعنة
قد اقتحمت واقعي أم لا.

قال وسط استغرابه:

- لا شيء على شعرك ولا عنقك
حتى، لكن هل أنت متأكدة أنك بخير؟

أومأت إيجابًا، ثم أدلفت مسرعة إلى
الحمام مجددًا، لتعود آثار تلك النواجز
اللعينة إلى عنقي.

أدركت حينها أن تلك الآلام حصرًا
عليّ، وأن أوجاعي وآلامي ومخاوفي
ستكون لي وحدي، ولن يستطيع أحد
مشاركتها معي أو التخفيف عني.

تأملت المرأة لفترة، وكل ما حدث
معي إلى الآن بسبب اعتياداتي، وما
رأيت فيه فيها وما تحول لاحقاً إلى
حقيقة.

قلت مخاطبة نفسي:

"إن قلبي المقعر بوخزات الخوف
والفرع لن يقوى على تحمل ضربات
الخيانة والخذلان."

وما إن أكملت تلك الكلمات حتى
تمنيت من أعماق قلبي ألا يتحول ذلك
المعتاد إلى حقيقة، وقد أسميته معتاداً
رغم أنني إلى الآن أقف عاجزة عن
الاعتیاد عليه.

شعرت بلهيب يتصاعد من قلبي إلى
أنفاسي، مسبباً لي اختناقاً قاتلاً.

قمت بتجهيز حوض الاستحمام،
ووضعت فيه بعض مكعبات الثلج
علّها تطفئ النيران التي بدأت
تلتهمني، محرقة أعماقي.

دون جدوى.

سمعت زمجرة مشابهة لتلك التي
سمعتها في المعتاد، ثم انقلبت إلى
طنين قوي مزعج يجعل مسامعي
تضطرب.

التفتُ إلى شتى جوانبي، لا أرى
شيئاً، ولا تزال تلك الزمجرة
المرتجة بالطنين مستمرة.

أخذت أضغط على أذنيّ بيديّ لعلّه
يتوقف، لكنه لم يفعل.

دفنت رأسي داخل حوض الاستحمام
ليتوقف أخيراً، وبقيت حابسة أنفاسي
في ذلك الحوض لدقائق حتى أجبرني
الاختناق على رفعه.

كانت أعصابي متشنجة رعباً من
عودة ذلك الطنين.

أخذت ألتقط أنفاسي بعد أن أوشكت
على الانعدام.

وبعد ما يقارب الدقيقة لاحظت أن
الطنين قد توقف.

أجهشت بالبكاء، دافنة صوتي بين
راحتي، ثم دفنت وجهي بين ركبتي
وانكملت على نفسي في وضعية
تقطع القلب شفقة.

بكيت ما يقارب نصف ساعة، ثم
نضبت دموعي وبقيت سارحة أتأمل
الفراغ.

تذكرت اعتياداتي السابقة، فألقيت
نظرة على إصبعي، فإذا بخاتم تلك
العجوز أو حفيدها، أيًا كان، لا يزال
عالقًا بإصبعي.

شعرت للحظة أنني اشتقت إلى تلك
الدوامة السابقة، فما عشته فيها كان
أرحم ألف مرة مما أعيشه الآن.

فكرت في خلع الخاتم لتعود قصة
مياخوت مجددًا، لكنني سرعان ما
تراجعت خوفًا من أن أندم على ذلك
فيما بعد.

بقيت في ذلك الحوض لساعات.
خشيت أن تسرقني غفوة تتسبب في
التهامي.

غرقت في حيرة قاتلة:

هل أتمنى انقضاء هذه الليلة
المشؤومة، أم أن يحل ذلك الصباح
اللعين لأضطر إلى توزيع ابتسامات
الاطمئنان الزائفة تلك؟

شعرت بوخزة ألم في عنقي، معيدةً
ما حدث إلى ذاكرتي.

تمتمت قائلة لنفسي:

- على الأقل ما أعيشه الآن حقيقي،
على عكس تلك الابتسامات.

دامت حيرتي طويلاً قبل أن يحل
ضوء النهار أخيراً.
ارتدبت قناع السعادة الزائفة على
الفور، ثم دلفت نحو جاك لأوقظه...

بدأ تجولنا في لوس أنجلوس. زرنا
الشواطئ أكثر من مرة بغية
الاسترخاء، كما قمنا بزيارة أسطورة
السينما "هوليوود". استمتعنا بمشاهدة

تلك الأسطورة المذهلة، وذهبنا إلى هناك أكثر من مرة لمشاهدة الأفلام.

لكن تفكيري ظل منشغلاً بذلك الأمر المعتاد، وبعد ازدياد شكوكي في أمر ألسا وجاك، قررت حسم الأمر. سأؤكد مما إذا كان حدسي في مكانه أم لا.

ذات يوم، اتفقنا أن يجهز الفندق لنا غداءً فاخرًا من أفضل تشكيلات وجباته. رفضت المشاركة متذرة بأن لدي بعض الأعمال عليّ إنهاؤها.

في البداية رفضوا، محتجين بالوعد الذي قطعته لهم في حفل التخرج بأن أرافقهم في كل خطوة من هذه الرحلة.

لكني بقيت مصرة، وقلت إن أمي قد
كلفتنني بإنجاز بعض الأعمال، وإن
ذلك الحدث المفاجئ لو لم يطرأ عليّ
ويكسر مخططاتي لما أخلفت وعدي.

اقتنعوا بعد الكثير من المحاولات.

كلفت أحد العاملين في الفندق
بتصوير كل تفصييلة في ذلك الغداء
ثم إرسال المقاطع لي مباشرة.

ذهبوا، وأنا مفعمة بالأمل ألا يكون
أي مما أفكر فيه حقيقة.

أخذت سيارتي التّسلا التي كانت هدية
من أمي، وابتعدت عن المكان قاصدة

أي مكان أستطيع المكوث فيه ريثما
ينتهي الأمر.

ابتعدت عن الفندق أميالاً قليلة ثم
توقفت منتظرة المقاطع.

انتظرت وصول أي مقطع يوقف
تسارع نبضات قلبي الذي بدا كما لو
أنه استشعر اقتراب ضربة عنيفة قد
تكون تهديداً له.

شيء آخر بداخلي كان يقول شيئاً
مختلفاً، ربما هو غروري الذي
رفض فكرة تعرضي للخيانة بعد
إعطاء ثقتي التي نادراً ما منحتها
لأحد.

لحظات مرت وأنا أنتظر، ثم
ساعات، ثم بعد وقت طويل بدأ هاتفي
يعلن عن حلول الموعد بإشعاراته
المتتالية.

شعرت بر عشة في يدي وأنا أنظر
إلى الإشعارات دون أن أجروء على
فتحها.

ثم بعد هنيهة فتحت الفيديو الأول.

كانوا مجتمعين على السفرة يتبادلون
أحاديث لا علاقة لها بي. بعد لحظات
لاحظت عدم وجود ألسا، فأمعنت
النظر بحثًا عن جاك، فإذا به موجود.

راحة غريبة مكثت في قلبي
للحظات، كأن أنوثتي كانت ترفض
ما ضج به عقلي.

دامت تلك الراحة للحظات قبل أن
تنقلب إلى مشاعر متضاربة، تشن
حرباً كان قلبي ضحيّتها.

الفيديو الثاني:

ألسا متجهة نحو السفارة وهي بكامل
أناققتها.

وقف جاك على الفور، وأسرع
مرحباً بها بقبلة طويلة أشعرتني
بالاشمئزاز وأنا أتذكر أشياء مماثلة
عشتها معه.

تسمرت مكاني للحظات بعد رؤية
ذلك المشهد، ثم أخذت أعيد الفيديو
أكثر من مرة كي أتأكد.

لم أصدق ما رأيته عيناى.

أعدته أكثر من عشر مرات دون
تصديق منى.

بدأ عقلى يتقبل الصدمة، بينما كان
قلبى يصارع منكرًا الأمر.

تحققت من جميع الفيديوهات باحثة
عن سبب مقنع، فلم أجد سوى أسباب
سخيفة وتافهة كمن يتعلق بأى وهم
لينجو.

فقط لأنني تعاملت معهم بفوقية في
الأعوام الماضية، ووضعت بعض
الحواجز ريثما أستعد للتعايش مع
عالمهم، وقاتلت خوفاً لبناء حياة
طبيعية معهم.

فإذا بهم لا يستحقون.

"ليتهم أمعنوا النظر جيداً في الغلاف،
فالكتاب لم يكن بذلك الغموض الذي
تخلوه."

لقد كنت أموت آلاف المرات ليلاً، ثم
أخترت وسط ذلك الدمار الماكن
بداخلي ابتسامة أهديتها لهم.

وكان المقابل صفقة أفقدتني الثقة
بالبشر.

لا أزال أعيد المقاطع مرارًا متهمةً
عينيّ بالكذب.

بدأت نيران الشعور بالخذلان تحرق
أشلاء قلبي بعد أن حطمه تحجر
قلوبهم.

رمى الهاتف اللعين أرضًا، فتحول
إلى أشلاء عكست انكسار قلبي.

كانت المشاعر تتضارب بداخلي.

بقيت صامته داخل السيارة أشاهد
الفراغ الكامن بداخلي لوقت طويل،
ثم دهست دواسة الوقود ورفعت
السرعة إلى أرقام جنونية.

انطلقت بسرعة همجية نحو وجهة
مجهولة.

كل ما أردته هو الابتعاد، الابتعاد
بقدر ما أستطيع عن هذا العالم المليء
بالقذارة.

لا أزال متمسكة بدموعي، لا أسمح
لها بتحطيم قناع الصمود الذي
أرتديه.

واصلت القيادة بجنون حتى وصلت
إلى ما أعاق تحركي.

وصلت إلى مسار "بالدي".

نزلت من السيارة، وكان المكان خاليًا
إلا من سكونه.

اتخذت المسار مجاهدة ارتفاعاته
حتى وصلت إلى قمة جبل سان
أنطونيو.

وقفت هناك دون حراك، أتأمل
الإطلالة والكم الهائل من البشر
الموجودين أسفل الجبل.

أشعر بثقل أضعاف هذا الجبل
مستقرًا على صدري.

مشاعر متضاربة.

أفكار مشتتة.

وحالة من الضيق تسيطر عليّ.

قاطعت ذلك بصرخة.

صرخة استجمعت فيها قواي كلها.

صرخت بأعلى صوتي، صرخة هي
أبسط ما قد أفعله بعد معرفة ما
عرفته.

آااااااااااااا!

أوغااااااااااااا!

بقيت أصرخ على قمة ذلك الجبل،
ناظرة إلى أسفله كما لو كنت أصرخ
في وجوههم.

حتى شعرت ببحّة في حنجرتي.

تدفقت الشلالات على وجنتي رغماً
عني.

وقعت أرضًا منكسرة القلب، محطمة
الآمال، منهارة الثقة.

أحنيت رأسي وأنا جاثية على ركبتيّ،
ثم أجهشت بالبكاء.

أفرغت كل ما بداخلي.

أزلت الجبل العملاق الذي كان يستقر
فوق صدري.

بكيت لأكثر من ساعة حتى أنهكني
البكاء.

توقفت.

استرجعت تلك الكلمات القاسية.

تلك القبلّة اللعينة.

ثم عدت للبكاء مجددًا، بقوة أشد.

ثم انهرت.

نفدت طاقتي.

بقيت صامتة أفكر فيما عليّ القيام به.

أتجاهل ما عرفته؟

أظاهر بالغباء؟

أجل.

هذا ما سأفعله.

"اغرق في دموعك بمفردك، ثم عد
إليهم بثقة لا تهتز."

هكذا فكرت.

عدت إلى الفندق، ووعدتهم
بالتعويض عن غيابي.

سأعوض غيابي عن الغداء بتنظيم
عشاء أفخر منه.

استقبلوني مرتدين أقنعة الطيبة،
متظاهرين بفرح زائف يشبه قلوبهم.

تعمدت التألق في تلك الليلة.

هذه المرة ليس لإخفاء مخاوفي، بل
لإظهار ما أنا عليه من قوة.

أمعنت النظر في المرأة ليلتها لأذكر
نفسي أنني سبق أن عشت بمفردي،
ويمكنني إعادة الأمر مجددًا.

"أن تعيش بمفردك أفضل ألف مرة
من أن تعيش وسط وجوه متغيرة لها
أقنعة متعددة."

أدركت حينها فداحة خطئي عندما
اعتقدت أن الاحتكاك بهم سيكون
ملاذًا لي، وسيقلل من خوفي. ما
رأيتهم كان أبشع من أي معتاد
رأيتهم من قبل.

«خيال موحش، وواقع أوحش»

طال تأملي للمرأة، أحاكي نفسي
وأرممها. تعمدت التأخر، أردت كل
ذرة انتباه، أردت رؤية نظراتهم تلك،
أردت أن أثبت لهم كم هو مستحيل
كسري. كنت أستمع بكشف
استغائبهم لي.

«أراهم كمن يختبئ خلف قماش
شفاف معتقدًا أنه مرآة حاجبة
للرؤية.»

جلست على أحد المقاعد، واضعةً
ساقًا فوق أخرى، متلذذةً بكلمات
الإطراء التي امتزجت بحقد لا يراه
سواي.

أقارن كلماتهم بتلك التي سمعتها في
تلك المقاطع، لأوقن لحظة بعد أخرى
مدى وساخة من أعطيته مكانًا في
قلبي في لحظة غياب.

أبتسم بصمت، ابتسامة حوت الكثير
مما لا يعلمه سواي.

استمرت الأحاديث حول افتقادهم لي
في الغداء، ثم انجرف الحديث إلى
وجهتنا التالية.

قال أحدهم مقترحًا:

« غابة مارشل »

حينها امتزج حقدى عليهم بمشاعر
أخرى مضطربة أثارت حيرتي.

هل أنقذهم من ملاقات حنفهم؟

أم أنتقم قائلة:

"فلتذهبوا إلى الجحيم"

هل انتقامي يجعلني مثلهم؟

أم أن موافقتي على ذلك الاقتراح لا
تُعد انتقامًا؟

كان الأخير هو ما فكرت فيه، فليس
بالضرورة أن يتكرر الأمر نفسه
الذي حدث لفلورا بعد ذلك الاعتياد.

ربما كل ما يحدث من نسج خيالي لا
أكثر.

هكذا أقنعت نفسي. جاريتم في
أحاديثهم متخذةً موقفًا حياديًا، وعلى
الرغم من ذلك كان القرار أن تكون:

(غابة مارشل)

وجهتنا التالية.

انتهى العشاء بعد الكثير من
الابتسامات الغامضة التي وزعتها،
مخفية ما هو أعمق.

عدت إلى غرفتي مرهقة، أزلت أقنعة
الصمود، مظهرةً انكساري لمن لا
أظهره لسواه.

لمراتي.

اعتقدت أنني أفرغت كل ما بداخلي
على سفح ذلك الجبل، لكن حين
جلست أمام مراتي علمت كم هو
صعب التظاهر بالقوة وأنت محطم
من الداخل.

وقعت عيناى على العقد الذي أهدتني
إياه أختي.

لامسته بأصابعي والشوق لها يتفاقم
بداخلي. تذكرت أنها الشخص الوحيد
الحقيقي في حياتي.

لم يكن أي من أخي أو أبي أو حتى
أمي بالقرب الذي كانت هي عليه.
وكونها الوحيدة التي تعلم بحالتي
أكبر إثبات على ذلك.

شردت مسترجعةً ذكرياتنا الجميلة
معًا، والبشعة أيضًا. تذكرت المواقف
التي وضعتها فيها لتخفي ما أعيشه
عن والديّ.

قاطع حبل أفكارني دمة لامست يدي
الممسكة بالعقد.

نهضت مبتسمة، قائلةً لنفسي كما لو
أنني في لحظة إدراك:

نحن لسنا في العصر الحجري، وأنا
لست جنديّة في مهمة تستلزم عدم
الاتصال بأهلي.

التقطت هاتفي واتصلت بأختي. دار
بيننا الكثير من الأحاديث الطويلة
التي أراحتني رغم عدم إخباري لها
بالخيانة، ثم أنهيت الاتصال.

بدأ النعاس يتسلل إليّ فاستسلمت له.

اعتياد الموت الجماعي نفسه، لكن
هذه المرة مع لقطة نهائية إضافية
غريبة.

تظهر العجوز في النهاية مبتسمة،
قائلة:

"نحن في انتظارك، ستشرفين عالمنا
عن قريب."

قبل أن تختفي مع استيقاظي.

أخذت حمامًا دافئًا دون استخدام
الحوض، ثم عدت للوقوف أمام
مرآتي مجددًا.

لأُصدم بما لم أتوقع رؤيته.

نسختي المتوحشة، بلامح أكثر
وحشية، تمد يدها لتخرج من المرأة
قائلةً بابتسامة اقتلعت أي ذرة صمود
احتفظت بها من قبل:

"تعالى، نحن فى انتظارك!"

بالكاد استطعت تغطية جسدى
بالروب قبل أن أخرج من الحمام
مسرعةً، لاهثةً.

كانت زجاجة ماء موضوعة قرب
سريري، فأفرغت محتواها كله فى
معدتي محاولةً التقاط أنفاسي.

جلست على السرير مرتعبة. لا أزال
على حالى، لا أرتدى سوى الروب.
بقيت على وضعيتي تلك ما يقارب
الساعة أو نصفها، قبل أن أعود
بخطوات حذرة إلى الحمام.

تفقدت المرأة فوجدت الصورة قد
اختفت.

بعد قضائنا أيامنا الأخيرة في لوس
أنجلوس، اتجهنا إلى غابة مارشل
كما اتفقنا.

في الليلة الثالثة بعد وصولنا إلى
هناك، نصبنا مخيمًا كعادتنا وأشعلنا
النيران أمامه. تبادلنا الأحاديث قبل
أن يغلبني النعاس وأخذ إلى النوم
على الفور.

بدأت تلك الهمسات تتسلل إلى
مسامعي.

لأول مرة أشعر أن إحدى شخصيات
اعتياداتي هي من تحاول إيقاظي.

همسات منادية تقول:

"تعالى!
لقد حان الوقت.
هيا يا الويزيانا.
نحن في انتظارك..."

استيقظت لأجد المخيم فارغاً،
والنيران خامدة.

لا أحد في المكان، وتلك الهمسات
مستمرة، كما لو أنها تقول:

اتبعيني، الطريق من هنا.

أصغيت لها ولحقتها، جاهلةً سبب
قيامي بذلك، وقلبي يكاد يخرج من
مكانه.

بعد خطوات قليلة كنت أمام المشهد
الذي لطالما خشيته.

كنت أمام الجثث تمامًا كما هي في
المعتاد، ولكن...

كان هناك شيء ناقص.

المرأة.

المرأة لم تكن هناك.

تسمرت مكاني أبتلع رريقي، ثم
شعرت بيد على كتفي.

اختفت الهمسات.

سيطر الخوف عليّ.

لم أستطع الالتفات.

حركت اليد كتفي لتوجه نظري نحو
صاحبها.

وهنا كانت الصدمة.

كانت المرأة المتشكلة بي.

أكلة الجثث ذاتها.

وما إن نطقت بتلك الكلمات:

"لقد ساعدتني، تعالي لنتشارك."

حتى سقطت مغشياً عليّ، وغصت
في سبات عميق...

شعرت بسطح بارد تحتي، كبرودة
الثلج. تسلل الوعي إليّ رويداً رويداً،
فتحسست السطح بأناملي، فإذا به

جليد. فتحت عيني نصف فتحة،
وبرؤية ضبابية حاولت فهم المكان.
اتضححت رؤيتي بعد هنيهة، فإذا بي
في أرض جرداء يكسوها الجليد.
التفتُ إلى شتى الجهات باحثَةً عن أي
تفسير، فلم أرَ سوى ذلك الجليد الذي
كان يلوح في الأفق.

بجسد منكأ أخذت خطوات بطيئة
نحو اللا وجهة.

مرت دقائق وأنا أسير بتلك الخطوات
الواهنة دون جديد.

بصوت حذر لا يجرؤ على الصراخ
بدأت أقول:

- هل من أحد هنا؟!

- أتسمعونني؟

لا مجيب.

بدأ صوتي يرتفع مرة بعد أخرى،
ومرّ الكثير من الوقت الذي قتل أي
أمل كان لدي في العثور على طرف
خيطة. أيقنت أنني في متاهة لا نجاة
منها.

همسات خافتة تتسلل إلى مسامعي.
أحاول التركيز لمعرفة مصدرها، فإذا
بها تحتي!!

وضعت أذني على الأرض،
واستمعت بإنصات.

مهلاً...

أنا أعرف هذا الصوت، لكن أين
أعرفه؟ وما الذي يقوله؟

ركزت أكثر فأكثر، وبدأ ما يقوله
يتضح لي. كان يهمس:

"سيدة المعطف."

ما إن سمعت تلك العبارة حتى عرفت
صاحب الصوت.

إنها... إنها فلورا!

ذات يوم قرب تمثال الحرية

أجلس أمام التمثال ممعنةً النظر فيه،
متذكرةً كيف سُلبت مني حريتي قبل
اعتياداتي. دموع حارقة تتسرب من
مقلتيّ دون أن يأبه بها أحد، تمامًا كما

يحدث دائماً؛ أموت ألف مرة في
الخفاء، وأتعفن دون أن يلاحظ أحد.

شعرت بيد صغيرة على كتفي.
استدرت، فإذا بطفلة في ربيعها
السابع، وبراءة ممزوجة بحزن عميق
تسكن عينيها. أخفت ذلك خلف
ابتسامة مواساة، وهي تمد منديلاً
إليّ، مشيرةً إليّ أن أمسح به دموعي.

لقد تعودت ألا يرى دموعي سوى
أختي. لا أجد الاهتمام من سواها.
أنتقي مكاناً لا يعرفني فيه أحد كي
أفرغ لدموعي حين يتعبني إخفاؤها،
حين لا أريد أن أكون عبئاً على
أختي. أخفي بكائي تحت ظل
"اللامعروف".

كانت تلك أول مرة أقابل فيها من
يلقي اهتمامًا بما أنا عليه. لم أكن
أتوقع حدوث شيء كهذا، وما أثار
استغرابي أكثر كونها طفلة بهذا
العمر.

استأذنتني الطفلة لتجلس بجواري،
فسمحت لها بذلك. مرت لحظات
وكلتانا تمعن النظر في ذلك التمثال.
كان الصمت مسيطرًا على الأجواء،
قبل أن تكسره الطفلة بقولها دون أن
تلتفت:

- أنا أيضًا.

نظرت إليها باستفسار، فأكملت:

- أنا أيضًا، في بعض الأحيان، لا أجد
من يفهم دموعي أو يواسيني دون
معرفة سبب حزني، فأختار أن أتفرغ
لتلك الدموع، وأحتفظ بها لي وحدي
ولخلوتي.

تكرر الأمر ذاته كثيرًا، حتى أثرت
مسح دموع كل من هو في حالة
مشابهة.

وجدتني أنصت إليها بإصغاء، قبل أن
أقف بسرعة قائلة:

- أنا لست كذلك!

ثم غادرت المكان على الفور.

رغم انسحابي ذاك، لم تغادر الطفلة
تفكيري. كيف لها، في لحظة لا
تعرف عني فيها أي تفصيل، أن تقدم
لي ما لم يقدمه لي أبواي؟!!

ترددت على ذلك المكان أكثر مما
كنت أفعل عادة. التقيت بتلك الطفلة
مرات عدة، وسمحت لها في النهاية
بمشاركتي ما لم أفكر يوماً في
مشاركته مع أحد سوى أختي.

أصبحت تلك الصغيرة سنداً لي،
ومخبأً من عالمي الموحش. كثيراً ما
أفكر كيف استطاعت، بعمرها
الصغير ذاك، كسب قلبي.

قضينا فترة طويلة تستند كل منا إلى
كتف الأخرى، دون أن تعرف إحدانا
اسم الأخرى.

لكنها اختفت فجأة. زرت مكاننا أكثر
من مرة، ولم أجدها. مرت فترة لم
ألتق بها خلالها. لا أنكر اشتياقي لها
في ذلك الوقت. بحثت عنها في
الكثير من الأماكن دون جدوى.

كدت أفقد أي أمل في العثور عليها،
ومع ذلك واصلت البحث.

وجدتها، بعد بحث طويل، جالسة
على أحد المقاعد في حديقة سنترال
بارك. بدت حزينة في ذلك اليوم أكثر
من أي وقت آخر. كانت تحمل
صورة بين يديها الصغيرتين، وتمعن

النظر فيها كما لو كانت تتمنى شيئاً،
لكنها سرعان ما أخفتها فور رؤيتي.

لم تقبل أن تريني إياها إلا بعد الكثير
من الإصرار.

كانت صورة لمعطف وردي مرصع
بنجوم ذهبية. بدا غالي الثمن، وربما
كان ذلك سبب استيائها.

لم أبد لها أي ردة فعل في ذلك اليوم،
لكنني فاجأتها فيما بعد بإحضار ذلك
المعطف لها هدية.

نقل ذلك الموقف علاقتنا إلى مرحلة
جديدة، وأصبحت أكثر قوة.

سألته لأول مرة عن اسمها:

- ما اسم الجميلة؟

ألا يحق لنا أن نعرفه بعد كل هذا؟

أجابت، منحنية الرأس، وفرحة
عارمة تغمرها:

- فلورا... اسمي فلورا.

ثم رفعت رأسها، موجهةً إلى السؤال
ذاته، فأجبتها مبتسمة:

- يمكنك مناداتي بـ "سيدة المعطف"...
اتفقنا؟

"سيدة المعطف"...

هكذا أصبحت تناديني منذ ذلك اليوم،
قبل أن تختفي مرة أخرى.

لكن هذه المرة لم تنتهِ فترة اختفائها
إلا بالعثور المروع على جثتها قرب
التمثال، بعد رؤيتي لذلك الاعتياد...

حين سمعت صوتها وهي تناديني
بذلك اللقب من تحت الجليد، شعرت
بشيء غريب يخبرني أنه ربما لا
يزال باستطاعتي استعادتها، بينما
شيء آخر بداخلي كان يقول العكس،
يقول إن كل ما أستمع إليه أو أشعر
به مجرد خيال...

بدأ الشك يجتاحني، فركزت أكثر وأنا
أستمع إلى الصوت مجددًا.

- تعالي يا سيدة المعطف، أنا هنا
بانتظارك. تعالي، فقد اشتقت لك

كثيرًا. أنسيتِ الأحاديث والدموع التي
تشاركناها؟

بعد سماع كلماتها تلك، شعرت بأنها
هي بالفعل.

بدأت أضرب ذلك الجليد بقبضتي
يدي بعنف جنوني. للحظة شعرت أن
المخرج الوحيد من تلك المتاهة هو
كسر ذلك الجليد.

استجمعت قواي، وواصلت الضرب
بقوة أكبر، أردد أثناء ضربتي دون
وعي:

- أنا قادمة يا فلورا... سيدة المعطف
قادمة إليك...

استمرت ضرباتي حتى نفدت طاقتي،
وخارت قواي، وتفطرت يداي ونزفتا
دمًا.

بيئت من أن تحدث ضرباتي أي
صدع في ذلك الجليد المتصلب
كالصخر.

هطلت دموع اليأس من مقلتي
بحرارة تكاد تذيب جليد تلك الأرض
الجرداء.

وبعد لحظات خيم فيها الاستسلام
على عزيمتي وقضى عليها بالكامل،
بدأ الجليد يتصدع.

أخذت الشقوق تتفاقم بسرعة هائلة،
حتى ابتلعتني المياه.

فجأة وجدتني أسبح في ظلام ممتزج
بالمياه.

بدأت المياه تسحبني، وشعرت كما لو
أنها تحولت إلى أيادٍ تدفعني نحو
المجهول.

شعرت باختناق آل بي إلى فقدان
وعلي.

بعد فترة غير معلومة، تحسست
بأناملي السطح الذي كنت مستلقية
عليه، فإذا برمال تتخلل أصابعي.
فتحت عيناى ببطء، فاصطدمتا
باحمرار أشعة الشمس وهي تلتقط
أنفاسها الأخيرة.

اعتدلت جالسة أنظر في كل ما كان
حولي كالتائه، وجددني على شاطئ
محيط تكسو الرمال أنحائه، بدا الأمر
كما لو أنني في جزيرة ما.

هممت بالوقوف، فإذا بجسدي منهك
كما لو أنني خرجت من حرب للتو.
يبدو أن المياه ألقيني في هذا المكان
مهزومة، وقد غُرس التعب في كل
خلاياي.

بصعوبة بالغة وقفت على قدمي،
وبدأت أخطو بينما يحاول نظري
استكشاف المكان. لا أرى سوى تلك
الرمال المحيطة بتلك المياه.

مخي يكاد يُفجره التفكير، ما الذي
يحدث بحق الجحيم؟

أين أنا؟

وكيف وصلت إلى هذا المكان؟

لا بد أن أحدهم يحاول إيصالي إلى
مكان ما، في البداية عبر الجليد،
والآن عبر هذه الرمال. إلى أين
سيوصلني كل هذا؟

من الذي يسيطر عليّ ويتحكم في
وجهتي؟

واصلت العدو وإشارات الاستفهام
تتراقص في عقلي. أنا في متاهة
مجددًا، لكن هذه المرة لا توجد
همسات سوى تلك النسيمات التي
تداعب المياه.

بعد فترة من العدو دون أن أرى أي
سبيل للوصول إلى أي مكان به بشر
أو أي كائنات أخرى، خيم الظلام
على المكان.

الصمت يسيطر على كل ما هو
محيط بي، وجسدي المنهك بدأت
تخور قواه. نبضات قلبي تتسارع،
وأنفاسي تسعفها بسرعة أكبر. أخطو
بحذر في تلك العتمة، أبتلع ريشي
رعباً من حين لآخر، أتوقع ملاقات
حتفي في أية لحظة، وفجأة!

أحدهم يسحب قدمي، لا أدري ما
هو. ألقيت نظري إلى الأسفل، لا
أصدق ما أراه.

إنها الرمال!

لم أستطع استيعاب الأمر، الرمال
تبتلعني بالفعل!

بدأت أصرخ بأعلى صوتي مستنجرة.
لا جدوى.

لا تزال الرمال تواصل ابتلاعي حتى
أسكتت صرخاتي. لحظات مرت
وأنفاسي مختنقة، ثم انتهى كل شيء.
كانت تلك نهاية حياتي، لا شك. هل
يعقل أن أكون قد مُت؟!

مرت لحظات وأنا على يقين أنني قد
فارقت الحياة، قبل أن تقذفني تلك
الرمال على رأس جبل من الرمال.
وقعت من قمة ذلك الجبل متدحرجة

كصخرة يحركها السيل كيفما شاء،
قبل أن يوقعها أرضًا.

وقعت في قاع أجهل مدى عمقه،
أعتقد أنه تحت عدة طبقات من
الأرض.

فتحت عيناى وسط الظلام ورأسى لا
يتوقف عن الدوار.

لم أستطع الاستقامة واقفة قبل توقف
ذلك الدوار. بدأت بعدوى السيزيفي
مجددًا.

ألقيت نظرة إلى الأعلى، فإذا بالرمال
تسقفني!

يبدو أنني في أعرق نقطة في
الأرض.

صداع عنيف داهم رأسي، بينما لم
يعد قلبي يشعر سوى بالخوف
والحيرة.

واصلت العدو على حالي المثير
للشفقة ذاك.

كان المكان كالنفق، مما بث الأمل
بداخلي مجددًا.

من ذلك الأمل كنت أستمد قوتي
لأكمل السير، لكنه سرعان ما تبخر.

هذا النفق، بكل ما فيه مما يشبه
الممرات، لا نهاية له.

مطأطئة الرأس، ذارفةً الدموع،
واصلت سيري كمن يُسحب على
الأرض سحبًا.

أحاول كتم أنفاسي كي لا يعرضني
إصداري لأي صوت للخطر.

أدركت عبثية سيري في تلك المتاهة.
جثوت على ركبتَي واليأس قد قتل أي
أمل كان يدعوني لأن أواصل. بدأت
أحن لتلك اللحظة التي شعرت فيها
أن حياتي انتهت، ليتها كانت كذلك...

أيقنت أن ذلك المكان سيكون سجنني
المؤبد.

قضيت الكثير من الوقت أحاول
التصالح مع هذه الفكرة، ثم فجأة،

ولسبب لا أدري ما هو، وجددتني
أستأنف سيري مجددًا. بعد فترة
يسيرة انتهى النفق الذي لم أتخيل أن
تكون له نهاية.

هناك مخرج.

تفاجأت برؤية ما كان على فوهة
النفق. كان أشبه بمملكة قد زُين كل
شبر فيها، تملؤها الأضواء من كل
مكان. كان منظرًا ساحرًا أنساني كل
ما عشته. هرولت خارجة، وقد
تلاشى كل تعب كنت أشعر به. لا
شك أنني سأجد في هذا العالم ما
يعيدني إلى عالمي.

شعرت أن طاقة جديدة شُحن بها
جسدي. ألم يديّ اللتين تظرتا إثر

ضرب الجليد اختفى كليًا. شعرت كما لو كنت في سباق طويل مليء بالتحديات والصعوبات التي لا توصف، ثم وصلت إلى خط النهاية، كالغريق الذي وجد ما يتشبث به بعد أن كان على يقين من هلاكه. هرولت بنشاط غريب يخالجه السرور.

حين وضعت قدميَّ على عتبة تلك المملكة، دوى في المكان الكثير من الهتاف والأصوات المحتفلة، كما لو أن المكان كان مجهزًا لي!

استغربت من ردة فعلهم. بدا وكأن سكان تلك المملكة كانوا بانتظاري. حاولت تجاهل استغرابي وواصلت

التوغل في المكان. كلما رآني أحدهم
تفاجأ فرحًا، ثم أسرع يخبر غيره.

لكن شيئًا غريبًا كان في أولئك الناس.
أصواتهم الفرحية لم تكن أنغامها
مريحة لسمعي، تمامًا كفرح الوحوش
بالإمساك بفرائسهم.

بدأ الخوف يحل محل الفرح الذي
كنت أشعر به، وبدأت ملامحي
تعكس ما بداخلي من رعب.

لحظات مرت قبل أن تهدأ تلك
الأصوات، كما لو أن أصحابها
لاحظوا انزعاجي.

تفرقوا من أمامي مفسحين لي
الطريق بشكل مريب.

انحنوا انحناءة محترمة كتحية لي،
كما لو أنني ملكتهم، ثم في الاتجاه
المعاكس من الممر الذي أفسحوا لي
الطريق للسير فيه، ظهرت تلك
المرأة، تحمل عقدًا من الذهب رُصّع
بأضواء زادت الذهب لمعانًا. سارت
نحوي مبتسمة، ثم وضعتة حول
عنقي.

كانت امرأة جميلة في منتصف
العمر.. مهلاً.. أنا أعرف هذه المرأة!
إنها صاحبة الإكليل ذاتها التي رحبت
بي في عالم اللا أصابع!
هل يعقل أنني في أحد اعتياداتي؟

كانت إشارات الاستفهام كعادتها
تتراكم في ذهني دون إجابة، لكن ما
كان غريباً في الأمر أكثر هو عجزني
عن الكلام أو الحركة حتى، كما لو
أن جسدي قد شُلَّ بالكامل.

تسمرت مكاني غير قادرة على
إحداث أي ردة فعل سوى تأمل تلك
المرأة التي لم تفارق الابتسامة
ثغرها.

قالت بعد وضعها العقد حول عنقي
كلمات لم أفهمها، لكنها بدت كترحيب
كما أوضحت ملامحها.

غرقنت مقلتي في الدموع لعجزني.
أردت التفوه بأي كلمة، لكنني لم

أستطع. تُحبس الكلمة بين شفتيّ بعد
وصولها لرأس لساني.

كان ما يحدث كشّل كلي. حاولت
التغلب عليه كمن يصارع ما يجهله،
وكان ذلك أصعب ما يمكنني عيشه.

كنت أتوسل بعينيّ، شعور خانق
يتفاقم بداخلي، ينهك قلبي كما يثقل
أنفاسي.

وضعت المرأة أناملها على رأسي،
وبحركة خفيفة غريبة أفقدتني الوعي.
تتسلل إلى مسامعي همسات كانت
أشبه بالهلاوس، صوت أختي وهي
تقول مجهشةً في البكاء: لا يمكنك
تركي بهذه الله و او عودي إليّ

وحاربي خيالك المتسلط على واقعك
كما عهدتك، الويز!

هيا انهضي، وكفاكِ إيلاًماً لقلب
أختكِ!

كم تمنيت، وأنا أستمع لتلك الكلمات،
العودة لأختي ولعالمي، تمنيت رؤية
وجهها حتى لو كان ذلك مجرد خيال،
كنت مشتاقةً لها، لكني لم أكن أرى
سوى السواد.

بدأت ألمح مشاهد لم تكن واضحة في
البداية، حيث غطاها الضباب قبل أن
تتضح شيئاً فشيئاً.

كانت أختي تجلس قرب سرير طبي
استلقت عليه فتاة لم تكن ملامحها

واضحة لي، هرولت نحو أختي فور
رؤيتها، اندفعت دون وعي حتى
اصطدمت بذلك الزجاج الذي لم
أتخيل وجوده، زجاج شفاف كالمرآة
حاجب للرؤية، لم يكن ذلك الزجاج
اللعين يسمح لأختي برؤيتي كما سمح
لي برؤيتها!

أخذت أضربه قابضةً يديّ بجنون،
أصرخ كما لو أن أختي تستطيع
سماعي، متجاهلة حقيقة أنها لم تكن
كذلك.

أختي، أنا هنا، كل ما عليك القيام به
هو الالتفات إلى الخلف كي تريني!
أرجوك، التفتي!

في البداية ضربت الزجاج بقوة قبل
أن تخور قواي بفعل اليأس والتعب
الذين حلا بي، فسقطت مستسلمة.

أسندت كتفي إلى الجدار الزجاجي،
ثم انهرت باكياً، تحسست صورة
أختي من خلف الزجاج، نظرت
باتجاهي فجأة ليدب الأمل في قلبي
المحطم مجدداً، لكن ما إن هممت
بالصرخ مجدداً لأسمعها صوتي
حتى تلاشت صورتها وحل الظلام
محلها ليسود المكان!

بقيت لفترة أصرخ آملةً عودة أختي،
ثم تعبت فأغمضت عيني، وحين
فتحتهما كنت في حجرة ملكية!

درت بعينيّ في الغرفة دون تحريك
جسدي، كنت مستلقية على سرير
ملكي ضخّم، لم أكن متأكدة من
قدرتي على التحرك، تفحصت الغرفة
بذهول، ثم ثبتُّ نظري على يدي
محاولةً تحريك أصابعي لأتأكد ما إن
كان باستطاعتي التحرك أم لا.

دمعة فرح سقطت من مقلتيّ مروراً
بوجنتيّ حين تحركت أناقلي، حاولت
الصراخ فخرج صوتي كما لم أتوقع،
اندفعت نحو الباب المغلق وبدأت
بخطئه بعنف مستجدةً، مواصلةً
صراخي:

من أنتم بحق الجحيم؟ أين أنا، وما
الذي تريدونه مني؟

أعيدوني إلى عالمي، أود رؤية
أختي، أتوسل إليكم.

كالعادة، فقدت الأمل حين لم يُجد
صراخي نفعًا.

بدأت بالتراجع حين سمعت خطوات
أحدهم قادمًا من وراء الباب،
تراجعت بالخطوات حتى ارتطمت
بالسرير وجلست عليه دون قصد، لا
أدري لِمَ شعرت في ذلك الوقت أن ما
هو قادم قد يكون حتفي الذي أوشكت
على ملاقاته أكثر من مرة.

دامت لحظات خوفي لفترة قبل فتح
الباب.

لأصعق بعد معرفة من قام
بفتحه.....

ما إن رأيته حتى تلاشى خوفاً
واندفعت نحوها منقضةً على عنقها
الذي قبضت عليه يداي بعنف وأنا
أصرخ في وجهها:

من أين أتيت أيتها العجوز اللعينة؟
وما هذا المكان المشؤوم؟ ما الذي
تريدينه مني بحق الجحيم؟ لماذا عليّ
رؤية وجهك المنحوس هذا في كل
مشكلة أقع فيها؟

لِمَ لا ينتهي اعتيادك كسابقه؟

كنت ثائرةً غير قادرة على التقاط
أنفاسي، أضيق عليها الخناق بكل ما

أوتيت من قوة، ألقيت عليها تلك
الأسئلة دفعة واحدة، اعتصرت عنقها
أكثر محاولة إجبارها على إجابتي،
لكنها كانت تنظر إليّ ببرود، كما لو
أنها لم تكن تشعر بيديّ على عنقها،
ابتسمت قبل أن تقول بنظرة استحقار
تلقيا عليّ:

لست جاهزة لتلقي الإجابات بعد،
تأدبي أولاً.

ثم وضعت أناملها على رأسي كما
فعلت المرأة، فسقطت ثانياً مغشياً
عليّ.....

هذه المرة حين رأيت أختي كنت على
يقين أنها لا تعلم بوجودي ولن تعلم
مهما صرخت أو ضربت ذلك

الزجاج، اكتفيت بإسناد ظهري على
الجدار باكيةً بصمت، دموع غزيرة
كانت تهطل متسارعة من مقلتيّ
اللتين استوطنهما حزن بدا أنه لا
ينوي الرحيل، بكيت فترة طويلة
وبشدة حتى استيقظت والبكاء لا يزال
مسيطرًا عليّ، بدأت أستوعب الحقيقة
المُرّة التي لطالما حاولت إنكارها،
لقد حُبست في هذا العالم المجهول،
إلى أجل قد يكون أجلي، دفنت وجهي
في إحدى الوسائد وكتمت أنفاسي
بها، تاركةً إياها تمتص دموعي التي
لا تزال تهطل بالغزارة ذاتها، كما لو
أنني بدأت البكاء للتو، بقيت على ذلك
الحال حتى أُغمي عليّ، بقيت على
ذلك لفترة لا أعلم مدى طولها قبل أن

أستيقظ على صوت خطوات أحدهم
قادم، كنت وقتها قد عاهدت نفسي
على ألا أفقد أعصابي مجددًا حتى
أجد إجابات على أسئلتني، قررت
البقاء هادئة أمام تلك العجوز، لكن
مفاجأة جديدة كانت بانتظاري.

فُتح الباب عن وجه لم أتوقع رؤيته،
تسمرت مكاني مذهولةً من رؤيته، لا
أقوى على إحداث أي ردة فعل، ثم
تحدث من كان يقف عند الباب:

سيدة المعطف!

لم أعد أفهم أيًا مما يحدث، لا بد
وأني قد جننت أو أوشك على ذلك،

فمن مات يستحيل عودته، وأنا متأكدة
من رؤيتي لجثة فلورا، رأيته بعيني
ولا شك في ذلك، يستحيل أن تعود
للحياة بعد تمزيق جسدها بتلك
الوحشية، بقيت مكاني غير قادرة
على استيعاب ما أراه أو تصديقه أو
تمييز ما إن كان حقيقة أم من نسج
خيالي، لم أعد أفرق بينهما على أية
حال.

أغمضت عيني واعتصرت أذني
بيدي، أقلب رأسي يمينًا ويسارًا،
أهمس لنفسي بأنني لست مجنونة،
استمر حالي بذلك الشكل، ثم نظرت
نصف مفتوحة لأرى ما إن كانت
فلورا لا تزال واقفة عند ذلك الباب،
كانت لا تزال في مكانها كما لم

أتوقع، خطوت نحوها بخطوات حذرة
حتى أصبحت مقابلة لها، مددت
أناقلي المرتجفة نحوها، وضعت يدي
على رأسها، مسحت على رأسها
بيدي غير مصدقة أن باستطاعتي
لمسها، بدأت فكرة مقابلي لشخص
من عالمي بعد فترة طويلة إلى حد لا
أعرفه من العيش في متاهة غامضة
تسيطر عليّ وتثير نوعًا من التعاطف
في قلبي، دمعة فرح خفيفة تدحرجت
من عينيّ، ثم احتويت فلورا بين
أحضانني، ألتمس فيها كل ما فقدته
واشتقت له، صديقتي الطفلة وأختي
أحب البشر إلى قلبي وعائلي وكل ما
عرفته في عالمي، أجهشت في البكاء
ممسكة فلورا، متذكرة كل ما مررت

به، بعد عناق طويل داهمتها
بالأسئلة: كيف وصلت إلى هنا،
ومتى، وكيف علمت بوجودي في هذا
المكان....

قبل أن تتفوه بكلمة، سمعت خطوات
مرعبة بدت مألوفة، بل وحفرت في
ذاكرتي حتى بت أعرفها وأحفظها
عن ظهر قلب، إنها تلك العجوز لا
شك.

وقفت أمام فلورا محاولة حمايتها مما
لم أستطع حماية نفسي منه.

دخلت العجوز ومع فتاة اتضح أنها
جارية حين أشارت لها بأخذ فلورا،
كنت متمسكة بفلورا عازمة على عدم
تركها، قبل أن ترمقني العجوز بنظرة

جعلتني أسمح للجارية بأخذ الطفلة،
الغريب أن فلورا بقيت صامتة منذ
قدومها، ولم تنطق سوى بـ«سيدة
المعطف»!

بعد مغادرة فلورا توجهت العجوز
نحوي، أيقنت أن إعادة ما فعلته في
المرة الماضية يعني ملاقة حتفي
دون شك، لذا أجبرت نفسي على
البقاء هادئة.

نطقت العجوز قائلة:

أسمحت لك بمقابلة الطفلة، لذا إن
أجبتك على أسئلتك إضافة إلى ذلك،
فيصبح في معاملتي معك دلال مبالغ
فيه، أليس كذلك؟

كنت أحاول جاهدة كتم غيظي وقتها،
لذلك لم أجبها وفضلت البقاء صامتة،
أردفت:

لقاءاتي معك ستكون على أية حال،
سأجيبك عن سؤال واحد كل مرة،
شريطة ألا تتجاوز أسئلتك خمسة
أسئلة، وبعدها سنباشر فيما أتيت من
أجله، مفهوم؟

أومأت إيماءً على مضض، فأكملت
قائلة:

حسنًا، ماذا كان سؤالك الأول؟ من
أنا، صحيح؟

قبل أن أتفوه بكلمة أكملت بتجاهل:

هذا هو، لا تتعبي نفسك بالإجابة....

أنا خندينا خندخويل، جدة مياخوت
خندخويل، من عائلة خندخويل
الملكية، أعتقد أن هذا كافٍ لصمودك
حتى اللقاء اللاحق.

ثم همست في مسمعي قائلة بصوت
لا يكاد يُسمع:

«فلا بد أن ذهنك قد أوشك على
الانفجار»

قبل أن تغادر الغرفة مغلقة الباب
خلفها، وتاركة إياي تتأكلني الحيرة
والفضول، لم أستطع استيعاب ما
سمعته بعد، أيعقل أن أكون قد خُطبت

لمياخوت، حفيد تلك العجوز،
بارتدائي لذلك الخاتم اللعين؟

مهلاً، الخاتم، لم لا أجرب خلعه؟

ألقيت نظرة على إصبعي ناوية خلع
الخاتم، فإذا به قد تحول إلى وشم، لم
أستطع وقتها تمييز ما شعرت به
لحظتها، أنا الآن على يقين أن هذه
العائلة يستحيل أن تكون بشرية، لا
شك أنني الآن في عالم آخر، ربما
للجن؟!!

درت بنظري في الغرفة، لا أرى
سوى أثاث ملكي فخم، لا يعطي
شكله أي تلميح يمكنني الاستفادة منه،
لا أدري ما الذي دفعني وقتها

للهرولة نحو الباب، والبدء في ضربه
وأنا موقنة أن الأمر لن يجدي.

صرخت كما لو أن أحدهم يستطيع
سماعي أو يهتم لما أقوله:

أخرجوني من هنا، أنا لست مجنونة،
أسمعني أحد؟

أرجوكم، لم يعد باستطاعتي تحمل
هذا المكان، افتحوا الباب، عليكم
اللعنة.

صرخت بغضب ضاربة الباب
بعنف، وحين أيقنت أن أحدًا لن يقوم
بفتحه، بدأت تكسير أثاث الغرفة
بهمجية والغضب يغلي سار في
جسدي، أفكار كثيرة غريبة تعصف

في ذهني الذي يوشك على الانفجار،
لقد بدأت أرى الموتى برؤيتي لفلورا،
أُخطب للجن بارتدائي خاتم مياخوت،
وأغادر الواقع بعجزي عن لمس
أختي رغم رؤيتها، كل ذلك أحدث
في ذهني فوضى عارمة، حولت
الغرفة إلى مجزرة حقيقية، ثم جلست
وسط ذلك الخراب بيأس يقتلني، كونه
عادة لم أعتدها، اندفعت شلالات من
دموعي على وجنتي، تهطل بغزارة
وأنا عاجزة عن فعل أي شيء عدا
البكاء، لم أعد أملك سواه ولا أدري
ما الذي سيغيره، لا أصدق كيف
تحولت من الـويزيانا روكفلر القاسية
القوية المتعالية، إلى فتاة ضعيفة
ضائعة في عالم تجهله، لا تكف عن

البكاء ولا يكف ذهنها عن التفكير في كل ما يرهقه.

ما تعرضت له من إرهاق كاد يجعلني فريسة سهلة للنوم، لكنني سرعان ما تذكرت مشهد أختي وشعور العجز القاتل ذاك، لم أرد تجربة ذلك اليأس مرة أخرى، فلم أسمح لذلك السلطان المسمى النوم بأسري مجددًا والسيطرة عليّ، بدأت أحاول تشتيت ذهني بأي شيء، لكن كل ما كان يهيمن على أفكاري فكرة أنني أصبت بالجنون، لماذا سمي الجنون جنونًا أصلًا؟

أيعقل أن يكون لاشتقاق اسمه من الجن؟

إن كان كذلك فلا بد أن احتكاك
أحدهم بعالم الجن يعني إصابته
بالجنون، إذاً فأنا مجنونة!

فكرت على هذا النحو، ثم حاولت
طرد تلك الأفكار خشية أن أكون
كمن يجعل من نفسه مجنوناً قبل كونه
كذلك، ثم يتحقق ما قاله عن نفسه،
ليتني فقط أستطيع الاستفادة مما
درسته عن علم النفس في تفسير كل
هذه الأمور، أو فقط في حفاظي على
عقلي، أو إخراجي من الحال البائس
الذي وصلت إليه، لقد وقعت في
دوامة شكوك لا نهائية، قُتل اليقين
بداخلي، إن واصلت التفكير فلا بد أن
رأسي سينفجر، لا شك.

احتضنت نفسي وأطلقت تنهيدة طويلة
قبل رفع رأسي لإمعان النظر في
سقف الغرفة، احتضنت رأسي بين
ركبتيّ، ولأول مرة فكرت: لم لا
أشعر بالجوع أو العطش في هذا
المكان؟

ليت الشعور بهما يأخذ فسحة من
عقلي الذي داهمته الأفكار، أو قلبي
الذي تراكمت به مشاعر مختلطة
ترأسها الإحباط، ثم شعرت بالاشتياق
لعائلي، تذكرت علاقتي مع أبويّ
وأخي غير الجيدة، ابتسمت ضاحكةً
بمرارة حين أدركت مدى بؤس الحال
الذي أصبحت عليه، كيف صرت
أشتاق لمن لم أفكر يوماً في احتمال
اشتياقي له.

طالما كان العمل وإدارته أهم بالنسبة
لهم من علاقتهم بي، أبعدهم الانشغال
فيه عني حين كنت في أوج ضعفي
واحتراجي لهم، تذكرت ما كنت عليه
فحدثت نفسي قائلة بحسرة:

ليت نفوذ أبي قادرًا على إخراجي من
هذا المكان، وهذه المتاهة اللعينة.

قضيت فترة أصارع النوم بإشغال
نفسي بكل تلك الأفكار، فضلتها عليه،
لكنها كانت تقودني نحو الأسوأ
لأستسلم في النهاية....

رأيت ما توقعت رؤيته، «اعتيادي
المعتاد»، في إحدى اللحظات

ضحكت حين تذكرت الأسماء التي
ذكرتها العجوز:

ما قصة هذه العائلة مع حرف الخاء؟
هيمن على أسماء أفرادها من الجد
حتى الحفيد.

تحول ضحكي إلى حزن حين
اصطدمت بدمعة ذكرتني بأسر عائلة
الحاء تلك لي، أطلقت تنهيدة أخرى
أطول من التي سبقتها، ومع ذلك لم
تغير شيئاً، لا من واقعي ولا من
خيالي، بعد فترة غير معلومة كما
العادة، استمر حالي فيها على ما كان
عليه، حان وقت لقائي مع العجوز،
هذه المرة لم أرَ فلورا معها، كما أنها
بدأت بإجابتي دون مقدمات:

لقد كان قرارًا سديدًا عندما اخترت
اختصار الطريق، فلو أصررنا على
إنهاء درب التساؤلات الذي رسمته
إشارات استفهامك لما انتهينا،
سأخبرك اليوم بما يتيح لك فرصة
التفكير جيدًا في اختيارك المقبل، فقد
أوشكت فترة احتجازك على
الانقضاء، لم يبق بيننا سوى لقاء
واحد في هذا المكان، والإجابة عن
سؤال واحد أنت من سيقوم باختياره،
وبعدها سيكون أي استفسار منك ذنبًا
لا يُغتفر.

قالت ذلك بنبرة تهديد ونظرة حادة،
قبل استئنافها كلامها:

والآن استمعي جيدًا لكل ما سأخبرك به، فهو ليس سوى معلومات وثيقة الصلة بك: عائلة خندخويل الملكية، واحدة من أعرق عائلات الجن الأجانب، وقد عُرِفَتْ بذلك منذ الأزل، غير أن الخوف من انقراضها ظهر منذ فترة، أصبحت كالجوهر النادرة الفريدة، للحفاظ على نسل تلك الجوهر كان لا بد لحفيدي مياخوت من اختيار إنسية عريقة النسب لتعمل على استمرار عرقه وسلالته، وعلاقتك مع كوابيسك جعلت منك الاختيار المناسب، وسهلت مهمة التواصل معك، كانت كوابيسك هي السبيل الوحيد للتحدث إليك، والمكان الأنسب للقائنا معك، أردنا الاستحواذ

عليك بواسطتها، وهو ما حدث
بالفعل، وخاصة بعد تجاهلك لتحذير
أصدقائك الخونة، كان ذلك بمثابة
استسلام منك وتسليم نفسك لنا، ولا
تسأليني كيف ذلك....

لقد أردنا القضاء على كل من يحاول
تحريرك من كوابيسك التي كانت
تمثل عقد اتفاقنا معك، كلما تعلقت
بعالمك وتجاهلت كوابيسك، كلما
استحال استحواذنا عليك، وهذا ما
سبب موت صديقتك الطفلة
«فلورا»، أما عن موت أصدقائك فقد
كان لهدف ثانٍ، من الواضح أننا
تمكنا من تحقيقه، فبمساعدتك لطيفك
المتوحش الذي لا شك أنك لا زلت

تذكرينه، عبرت عتبة باب عالمنا ولو
دون قصد....

لديك خياران الآن: إما العودة لعالمك
والبقاء على تواصل معنا من خلال
كوابيسك، وسيكون الاختيار سهلاً
عليك لو ألقيت نظرة على ماضيك،
أو العكس، ستبقين هنا ولن ترين أي
شيء له علاقة بعالمك إلا في
كوابيسك.

لم أفهم أيًا مما قالت، ولم أقوَ على
إحداث أي ردة فعل، كان ذهني
يحاول جاهداً ربط ما قالته وترتيبه
وفهمه، لكن محاولاته باءت بالفشل،
كما كان جسدي، كأنه قد شُلَّ
بالكامل.

بعد أن أنهت كلامها ألقت نظرة على
أثاث الغرفة المحطم، ثم قالت بتهكم:

يبدو أن المعاملة الجيدة والرفاهية لا
تناسبانك.

ثم أجلسني على كرسي خشبي
وثبتت جسدي عليه، ثم ربطتني معه
بحبل خشن بعنف، وسط الصدمة
التي لم أخرج منها بعد، ثم وضعت
وجهها القبيح في وجهي قائلة:

صدقيني، لولا إصرار حفيدي لقتلت
أختك وأخذتك عنوة، لكن لا بأس، لا
يزال لدينا الكثير لنعيشه معًا، والآن
هناك ما هو بانتظارك وعليك
رؤيته....

فرقت بأصابعها بعد إنهاء كلامها
لأغط في سبات عميق....

استيقظت على باب الغرفة مفتوحًا،
كما كان قيدي قد تم فكّه، خرجت من
الغرفة دون تفكير، وجدّتي تائهة في
قصر لا يكاد عقلي يجد كلمات
مناسبة لوصف ضخامته، مساراته
تحولت إلى متاهة، ركضت نحو جهة
مجهولة، قادتني قدماي إلى شرفة لا
أدري لم توقفت قربها بالضبط،
أنهكني البحث عن مخرج، كان
الوقت فجرًا ولم تسمح لي العتمة
برؤية شيء، نظرت نحو إطلالة
الشرفة، فإذا بي أقف على ارتفاع
شاهق يقارب عشر طوابق، في
الأسفل رأيت شوارع متفرقة على

سطح الأرض، لكنها كانت فارغة
تمامًا، فترة طويلة قضيتها أمعن
النظر في تلك الشوارع علي أعثر
على ما يساعدي، لم أرَ أي شيء أو
شخص، شعرت بأحدهم خلفي،
سمعت خطواته وهو يقترب، التفتُّ
مفروعة، فإذا به طيفي، ذات الفتاة
التي تشبهني إلى حد بعيد، إلا أنها
أخذت من ملامح العجوز وشكل
أولئك الوحوش ما جعلها مرعبة إلى
حد قاتل، رؤيتها أعادت لي ذكرى
ذلك الاعتياد الذي لاحقتني الوحوش
فيه، وقفت مكاني مصعوقة من هول
بشاعتها، أخذت بضع خطوات إلى
الخلف، بينما كانت هي تقترب أكثر،
واصلت التراجع حتى اصطدمت

بجدار الشرفة وفقدت توازني لأقع
أرضاً، لم أشعر بجسدي سوى
والرياح تلفحني أثناء سقوطي من
ذلك الارتفاع الشاهق، ثم سقطت
مغشياً عليّ.

بعد فترة مجهولة وجدت نفسي غارقة
في دمائي المتجلطة، منبطحة على
سطح قاسٍ، تحسست الدماء بأناملي
لأتعرف عليها، ثم وضعت يدي على
رأسي الذي يكاد الصداع يتسبب في
انفجاره، وقفت بثقل شديد، ثم رفعت
نظري لأتفاجأ باختفاء القصر.

لم يعد القصر في مكانه، اعتصرت
رأسي أكثر محاولة التذكر، لكنني لم

أتذكر سوى ذلك القصر الذي اختفى،
أنا في مكان مهجور بالكامل،
ضغطت على رأسي مجدداً، لكن لا
جدوى، لمحت في الأفق سيارة
قادمة، فوقفت في منتصف الطريق
ألوح لها بيديّ لتنتبه لي، كانت تسير
بسرعة جنونية، ثم وقبل أن تصلني
تقلبت في الهواء في مشهد مفرع،
أغمضت عينيّ وأغلقت أذنيّ عن
صوت الاصطدام، حين هدا المكان
تقدمت نحو السيارة، ولا أملك أي
فكرة عن سبب قيامي بذلك، لأصعق
بمن وجدته داخلها، كانت جثة أبويّ
الذين ماتا بطريقة جعلت قلبي
ينقبض حين رأيت جسديهما
المشوهين، تراجعت إلى الخلف غير

مصدقة ما رآته عيناى، ثم ركضت
بالاتجاه المعاكس، وليس على شفتيَّ
سوى جملة واحدة:

«ما رأيتَه يستحيل أن يكون حقيقة».

ركضت بسرعة وطبلة أذني تكاد
تتفجر لشدة صخب نبضات قلبي
المضطربة، شعرت به يدق بعنف، ثم
شعرت بحرارته ترتفع حد الاحتراق،
ثم اختنقت أنفاسي قبل أن يتوقف....

كل ما رأيتَه مر أمام عينيَّ المغلقتين
بوتيرة سريعة، أستمع إلى صوت
أجهزة طبية قبل فتح عينيَّ، فوجئت
بأختي تجلس قرب سريرى الطبي

فرحة باستعادتي لوعي، لم أصدق
أنها موجودة، فاندفعت نحوها بسرعة
وعانقتها بمشاعر مختلطة، شوق،
حنين، خوف، حيرة، والكثير من
المشاعر الأخرى التي لم أجد لها
اسمًا، حضنتها بقوة مستنشقة رائحتها
التي اشتقت لها أكثر من أي شيء
آخر، تأكدت أنها هي، فأجهشت في
البكاء....

تذكرت مشهد موت أبويّ، ففكت
عناقها مرتعبة، وأخذت أكلماها عن
كل ما عشته بصوت متقطع يسيطر
الخوف عليه، وبكلمات متلعثمة
أثقلتها ملامح عدم الفهم التي أبدتها
أختي إيميلي، كما لم يكن بكائي
يسمح لكلماتي بالخروج واضحة

سهلة الفهم، كل هذا أقنعت نفسي أنه
سبب عدم فهمها لي، قبل سماعي
لكلماتها التي كانت أثقل من أي شيء
آخر عشته:

أي رحلة وأي أصدقاء؟ أنت لم
تذهبي إلى رحلة بعد التخرج، وأي
أصدقاء؟

تعلمين أنك لا تملكين أي أصدقاء!

عمّاذا تتحدثين؟ أنا لا أعرف أيّا من
الأسماء التي ذكرتها، من هي ألسا؟
ومن جاك؟ وأين تعرفت عليهما؟

كانت كلماتها تلك كالصدمات
المتتالية التي أعجزتني عن الكلام،
بماذا أحاول إقناعها الآن؟

بحالة أبويّ أم بحقيقة ما حدث مع
أصدقائي؟

كانت أفكاري مشتتة بشكل جنوني،
مما جعلني أصرخ في وجهها باكية:

أنا لست مجنونة، أنا متأكدة مما
عشته، مما رأيته، ما حدث يستحيل
أن يكون مجرد خيال، لا يمكن!

كنت أصرخ بأعلى صوتي بتلك
الكلمات، كما لو أن صراخي
سيجعلها تصدقني، بدا على ملامحها
أنها لا تفهم أيّا مما أتفوه به، ملأ
صراخي المكان حتى داهمه الأطباء،
شعرت بوخزة خفيفة في ذراعي
أفقدتني الوعي مجدداً.

هذه المرة حين استيقظت، كان كل شيء قد تحول إلى سراب، كنت في الغرفة الملكية المغلقة، مقيدة على الكرسي الخشبي، درت بنظري في المكان، فإذا به كما هو، دقائق مرت والصدمة مسيطرة عليّ، ثم شعرت أن المكان أصبح ضيقاً عليّ، ضاق صدري كضيقة وكضيق نفسي، صرخت بهستيرية:

أين أنت أيتها العجوز اللعينة؟

تعالى وأخرجيني من هنا، لم أعد أتحمل، لقد نفذت طاقتي، أرجوك، أتوسل إليك، أعيديني إلى أهلي، إلى عالمي وإلى أبويّ، إنهما بخطر....

لم أجد من الرد سوى صدى صوتي
الذي دوى في المكان، حاولت
التحرر من قيدي، تحركت بعنف
حتى أوقعت الكرسي أرضاً لأقع
معه، لحظتها شعرت بهوم العالم
كلها على كاهلي، حمل ثقيل على
قلبي، جبل ضخيم يعيق أنفاسي،
شعور خانق أعجز عن وصفه
يسيطر عليّ، ككل مرة لا أملك سوى
دموعي التي لا تنشف، كان ذلك أسوأ
ما قد أمر به طوال حياتي، فترة
طويلة مرت وأنا على حالي المزري
ذاك، دموعي كلما نشفت استرجعت
ما حدث فعادت بغزارة مضاعفة.

«لا يمكنني وصف الحالة التي وصلت إليها مهما حاولت».

فترة طويلة مجهولة أخرى مرت قبل قدوم العجوز. فكت قيدي، كنت كالجثة الهامدة، أجلسني على السرير الضخم، ولأول مرة قدمت لي كأس ماء لأشربه.

كنت في حالة سيئة إلى حد لا أعلمه. مذ رأيت ذلك الاعتياد المؤلم، لم أستطع العودة كما كنت. مجرد فكرة أن ما عشته منذ تخرجي من نسج خيالي، فكرة أن الرحلة، والأصدقاء، والخيانة، وحتى الموت، كل ما مررت به لا علاقة له بالواقع، فكرة

أن احتجاري في هذا المكان لا أحد
سيصدقه إن خرجت، حتى أختي!
فكرة أنني سأتهم بالجنون إن حاولت
إثبات صحة ما مررت به، كل هذه
الأفكار، مجرد التفكير فيها يثير
الجنون بداخلي، ويولع في ذهني نارًا
لا تنطفئ.

ومن جهة أخرى، مسألة موت أبوي،
موتهما البشع الذي أصبحت متأكدة
من كونه سيصبح حقيقة.

لقد دفعت ثمنًا غاليًا حين تجاهلت
التحذير المتعلق بأصدقائي. عجزني
هنا عن تغيير حاضر أو مستقبل أو
تحذيرهم مما رأيت يخلق في قلبي
شعورًا هو أشبه بمن خُلع قلبه من

مكانه ووُضع تحت صخرة بثقل
جبل، ثم ضُرب بها ضربة لم تُبقِ
منه سوى دماء متناثرة، بينما هو
يراقب كما لو أن الأمر لا علاقة له
به!

صدقني، إنه لمن الصعب أن تريك
الدنيا أبشع ما ستفعله بأحبّتك، وكيف
ستقتلهم بحوادث دموية، تريك كل
ذلك قبل حدوثه، ثم وفي الوقت ذاته
تشعرك بالعجز عن إحداث أي تغيير
في ذلك.

من الصعب أن يشترك عقلك وقلبك
وكل جوارحك في ألم واحد، قاتل
يستحيل على أشد البشر قوة تحمله،
ألم هو أشبه بالجحيم بعينه.

صرخت، بكيت، كسرت، حطمت كل
شيء بما فيه رأسي، جننت ثم
استوعبت أن كل ذلك لم ولن يغير
شيئاً.

حين قدمت العجوز المياه لي، لم أكن
في حالة تسمح لي بتحليل تصرفاتها
أو البحث عن سبب قيامها بذلك. كل
ما استطعت تخمينه أن حالتي ساءت
إلى الحد الذي جعل العجوز تشفق
عليّ، تعاطفت معي بعد أن كان لها
النصيب الأسد من كل ما عشته.

وضعت الكرسي الخشبي بالقرب من
سريري، ثم جلست عليه مقابلة لي.
كانت مقلتاي لا تزالان تلمعان
بالدموع حين قلت لها بخصلة أمل:

- هل لي بطلب؟

لقد رأيت موت أبويّ، هل يمكنك منع حدوث ذلك؟

- «حبر القدر يستحيل محوه».

ولا بد أنك تعلمين ذلك جيدًا.

قلت بتهكم:

- كيف استطعتم جلب فلورا إلى هنا
إذاً؟

أجابتنني بما أثار استغرابي:

- أنت من قام باستدعاء تلك الطفلة،
أنت من نسجها من خياله...

ثم أكملت وكأنها تجيب على تساؤل
واضح في عيني:

- معانقتك لخيالك لا تجعل منه
حقيقة...

مع كوني لم أكن واثقة من صحة أي
مما أراه أو أسمعه أو حتى عدم
صحته، إلا أن الشك قد ساورني
حول كلام العجوز، فقلت بتهكم:

- لمَ لم أقم باستدعاء أختي إذا؟

- أنت وحدك من يملك الإجابة.

تفرست وجهها محاولة البحث عما
يقنعني، لكن ملامحها لم تكن واضحة

أو مفهومة، مما رسم ملامح اليأس
على وجهي مجددًا.

نهضت من على الكرسي، واستدارت
لتقف متأملة الفراغ وهي تقول:

- رغم كرهني للبشر ورفضك لي،
وكوني لم أكن لأوافق عليك لولا
الظروف وإصرار حفيدي، رغم كل
ذلك أشفق عليك، عليك وعلى
أمثالك، على من يشعر بالغربة وسط
بني جنسه...

حدقت بها باحثة عن تفسير لما تقول،
فاستأنفت:

- ستفهمين ذلك في وقت لاحق...

ثم أردفت وهي تعود للجلوس على
الكرسي:

- عموماً، تحدثنا اليوم أكثر من
اللازم، لنعد إلى ما هو أهم...

ما هو قرارك؟

وقبل اتخاذ فكري جيداً، فقد خسرت
الكثير، كل من اقترب منك كان له
المال ذاته، أبواك في انتظار موتهما،
أما أختك فيمكنك القول إن حبل
نجاتها لا يزال بين يديك، أنت تعلمين
جيداً ما يمكننا القيام به فداء الوصول
إلى مبتغانا، أليس كذلك؟

كنت منصتة لما تقوله، أفكر فيما
سيحدث لو وافقت. هل سأهب نفسي

لهذا العالم المجهول مقابل بقاء أختي
على قيد الحياة؟

فكرت قليلاً في الأمر، ثم توصلت
إلى قرار. عليّ الموافقة الآن،
وسأفكر فيما عليّ القيام به فيما بعد.
ربما خروجي من هذه الغرفة يعني
عودتي إلى عالمي.

- موافقة!

قلت رافعة راية الاستسلام في
وجهها. وافقت على حصر رؤية
عالمي في كوابيسي، ثم تذكرت
عجزي عن لمس أختي فاستدركت:

- لكن بشرط.

العجوز، بنظرة تهديد حادة:

- أنت تعلمين جيدًا أنك لست في موقف يسمح لك بوضع شروط.

أكملت بإصرار رغم أن نظراتها
أرعبتني، لكنني حاولت إظهار
العكس، متجاهلة كلامها:

- أريد محادثة أختي.

ما إن أكملت كلامي حتى رفضت
على الفور.

حاولت كتم غيظي، بينما كان شيء
آخر بداخلي يقول: قاتلي تلك العجوز
حتى لو كانت حياتك الثمن، ذلك
أشرف لك من هذا الذل.

لكن شيئاً آخر أقوى، أعتقد أنه
الخوف الذي يجعلني أنصاع له في
كل مرة، طغى على أي شيء آخر
بداخلي، وتربع على عرش مملكة
مشاعري وأخضعها لحكمه كما
اعتدت.

لم أعترض على رفض العجوز، ولم
أنبس ببنت شفة.

فرقت أصابعها فرقة خفيفة،
فاصطف ثلاث جوارٍ يحملن أدوات
تجميل وأثواباً ملكية خرافية. يبدو
أنهن هنا لتجهيزي.

كادت العجوز تغادر الغرفة بعد
دخولهن، قبل أن تظهر أمامي فجأة
ووجهها يكاد يلامس وجهي:

- إن أردت معرفة حقيقة البشر ،
فعودي إليهم برجفة خفيفة في
جسدك، حينها ستعرفين من سيبقى
بجانبك، ستدركين وقتها مدى حكمة
حين اخترت من هو أفضل منهم.

أنهت كلامها، ثم غادرت الغرفة في
رمشة عين.

اتجهت واحدة من الفتيات الثلاث نحو
أحد جدران الغرفة، وضعت رأس
كل من بنصر ووسطى وإبهام يديها
في منطقتين متقابلتين، ثم جمعت
أصابعها بحركة تشبه نجمة بثلاثة
رؤوس.

بدأ الجدار يتصدع، ثم رُسم باب على شكل إنسان، قبل أن يُفتح الباب وسط الاندهاش والذهول اللذين أصاباني.

أشارت الفتاة لي بالدخول قائلة:

- تفضلي، جلالتك، لتبديل ثيابك.

ابتلعت ريقي مفكرة فيما قد ينتظرني بالداخل. كيف لم ألحظ وجود هذا الباب طيلة الفترة التي عشتها هنا؟

ترى، أتكون هذه إشارة لوجود المزيد من الأسرار في الغرفة؟!

قاطعت الفتاة تفكيري وهي تعيد جملتها مجددًا. استجمعت شجاعتي

ودخلت بعد أن ناولتني فتاة أخرى
ثيابي.

كان المكان مظلمًا بشكل مريب،
خاليًا من أي ضوء عدا إضاءة خافتة
قرب المرأة لم أستطع معرفة
مصدرها.

تجاهلت الخوف الذي غزا قلبي مذ
دخلت المكان.

وضعت الثياب التي أعطتني إياها
الفتاة على الكرسي المقابل للمرأة،
وقفت وظهري للمرأة أحاول فتح
سحاب فستاني الواقع بين كتفي.

كان الهدوء والظلام يجعلان المكان
أكثر ريبة لحظة بعد أخرى.

شيء قال خلفي بهمس:

«أن أوان فك أسرك».

التفتُ بسرعة إلى الخلف، فلم أرَ شيئاً. بحثت عن مصدر الصوت، فلم أرَ سوى صورتي.

درت بنظري في الظلام أقول
بصوت لم يسمح الخوف بارتفاعه:

- هل من أحد هنا؟

نظرت إلى الباب فإذا به مغلق، ليزيد
ذلك من سرعة نبضات قلبي.

أحدهم أجابني:

«أنا أنت».

تمعنت هذه المرة في مصدر
الصوت، استمعت له بإنصات
لأصعق بكونه لم يكن سوى صوت
صورتي في المرأة، أجل، هو كذلك.

نظرت للمرأة بتركيز، ثم اقتربت
منها وتحسستها بأناملي، وضعت
أذني على المرأة فقالت:

«باستطاعتي إخراجك من هنا».

تيقنت من حقيقة ما يحدث، ففعلت ما
لا يستوعب عقل إمكانية فعله، بدأت
أحدث نفسي في المرأة قائلة:

- كيف؟!!

كيف ستخرجيني من هنا؟

- صورتني في المرآة: أول ما عليك
القيام به هو التخلص من الجواري.

- كيف؟

- عليك الصراخ بصوت مرتفع طالبة
النجدة، وبمجرد دخولهن سأتكفل أنا
بالأمر.

ترددت في البداية، فما يطلب مني
ضرب من الجنون، كيف أحدث
المرآة ثم أصرخ دون سبب!

فكرت لو هلة، ثم تذكرت الأيام البشعة
التي عشتها في هذا المكان المشؤوم،
أي بصيص أمل لمحته عليّ التشبث
به.

أومأت إيجابًا، فقالت:

- أثناء صراخك أغمضي عينيك، ولا
تفتحيهما إلا حين أخبرك بذلك.

نفذت ما طلبته مني، وبعد صراخي
سمعت أصوات عراك محتدم،
أصوات لم تستطع يداي حجبها عن
أذنيّ رغم ضغطي عليهما.

رفسني شيء جعلني أرتطم بالجدار،
ففتحت عينيّ لا إرادياً، لكن سرعان
ما أغمضتهما.

وما رأيته يرفض مغادرة ذاكرتي،
كان مشهدًا فظيئًا لجسم إحدى
الفتيات وقد قُطع إلى أشلاء، رأيته
متناثرة وسط الدماء.

جلست مستندة على الجدار منكمشة
على نفسي، دافئة رأسي بين ركبتيّ،
بينما أردد:

ليس حقيقة... ليس حقيقة... ليس
حقيقة... ليس حقيقة...

بقيت على حالي لفترة قاربت نصف
الساعة على أقل تقدير، ثم سمعت
صوتي يخرج من المرأة مجدداً
يخبرني بأن الأمر قد تم، وأصبح
بإمكاني فتح عينيّ.

في البداية لم أتشجع على فتحهما
خشية رؤية ذلك المشهد المروع
مجدداً، لكن بعد لحظات استجمعت
شجاعتي وفتحتهما نصف فتحة قبل

تأكدي من أن المكان خالٍ لأكمل
فتحهما بالكامل.

رفعت رأسي ببطء نحو النور الخافت
حول المرأة، ثم اتجهت نحوها
بخطوات مرتعبة أبتلع رقيقي، ثم قلت
بصوت متقطع:

- هل... هل انتهى كل شيء الآن؟

المرأة:

- ليس بعد. إن حياتك الفارغة وكونك
غير محصنة جعلاك عرضة لكل ما
عشته، لن ينتهي أي شيء قبل تغير
ذلك.

لم أفهم مما قالتة سوى أنني لن أخرج
من هذا المكان، استغربت من كلامها
فقلت بحسرة:

- ما الذي تغير إذا؟!

- ستعودين لما كنت عليه، لن تكوني
أسيرتهم هنا بعد الآن، بل سيكون
أسرك في اعتياداتك كما اعتدت...

لم أصدق ما قالتة، مسحت دمعة
باغتتني، ثم سألت:

- كيف ذلك؟

ما إن أكملت كلامي حتى فُتح الباب
مطلًّا على غرفتي، أو سجنني إن
صح التعبير، ثم قالت:

- سبيل خروجك، تحت سريرك.

كان ذلك آخر ما قالتها، ثم تلاشت
صورتي من على المرآة وسط
اندهاشي. كنت واقفة أمام المرآة، لا
أرى سوى البخار، قبل انطفاء النور
الخافت ليستحوذ الظلام على المكان
بالكامل. تمكن مني الخوف وقتها،
ولم أعد أرى سوى الباب الذي
اندفعت نحوه مسرعة، وما إن
غادرت المكان حتى أغلق الباب على
الفور.

عاد الجدار لطبيعته، كما لو أنه لم
يكن به باب قبل لحظات، حتى
تصدعه اختفى. اندفعت نحو السرير
متجاهلة الأمر، اندفعت بمشاعر لم

أدر ما إن كانت خوفًا أم أملًا أم حيرة
أم عدم تصديق لتلك المرأة ولكل ما
حدث. لم أدر ما هي بالضبط، لكنني
ذهبت إلى السرير على أية حال.
أمعنت النظر في أرجائه، في غطاءه
وتحت غطاءه وفي كل تفصيلة فيه.
أزلت كل ما كان عليه من أغطية أو
وسائد، وأدخلت رأسي تحته وتأملت
بتركيز، لكن دون جدوى. لم أرَ شيئًا.
أعدت تأمله مجددًا، وركزت أكثر
وأكثر، لكن لا جديد.

كان ضخماً للغاية، لم أستطع تحريكه
من مكانه ولو قيد أنملة، لم أستطع
رغم كل محاولاتي. شعرت بثقل
على صدري، بضيق مميت يعيق
تنفسي.

ماذا لو كان كل ما حدث مجرد كذبة
من كذب خيالي المعتاد؟

ماذا لو كان حقيقة، لكني لست بالقوة
الكافية التي تسمح لي بالاستفادة منه؟

ماذا إن سمعت خطوات تلك العجوز
الآن؟

ماذا...؟

حتى لو قررت الآن الغرق في دوامة
الخاء مجدداً، فلن أستطيع. ضاغت
ملابسي في ذلك المكان، هل يعني
ذلك أنني سأعود لما كنت عليه؟
سأضطر لمواجهة غضب العجوز؟

في المرة الماضية حين غضبت،
أرتني موت أبويّ، هل ستقتل أخي
هذه المرة؟

لا أدري، لا أدري. كل ما أعرفه أن
جدران هذه الغرفة ضيقة جدًا، تقتلني
وأنا على قيد الحياة. لم أعد أحتملها.
رغم فخامتها بدت كالتابوت الذي
أختنق بداخله.

هل من الحكمة أن أصرخ الآن؟

ماذا لو سمعتني العجوز؟

تبًا للحكمة!

صرخت بأعلى صوتي، بكل ما تبقى
لي من طاقة حتى خارت قواي.

مسكت إحدى الشراف و انكملت
على نفسي أبكي بحرقه. لم أعد أقوى
حتى على البكاء، بح صوتي فلم
يستطع حتى أن يئن. تركت الدموع
تذرف، عليها تطفئ النار المشتعلة
داخلي، لكنها كانت حارة كاللهب.

ثم سمعت خطوات أحدهم قادمًا.

لا شك أنها العجوز. حفظت صوت
خطواتها، كان أشبه بصوت مطرقة
القاضي بعد نطقه بحكم إعدامي،
كصوت الجرس حين يعلن انتهاء
الوقت بينما لم أكتب شيئاً في ورقة
امتحان.

هل رسبت؟

هل أعدمْتُ؟

لا، ليس بعد. عليّ قلب الموازين،
عليّ تغيير كل ذلك.

وقفت مجددًا أمعن النظر في ذلك
السريّر اللعين، لكن هذه المرة تخيلته
هو ما يثقل كاهلي، هو السبب في كل
ما عشته. عليّ دفعه حتى لو كُسرت
عظامي عظمة عظمة، حتى كلفني
الأمر حياتي. عليّ إزاحته.

وضعت كتفي على حافته، ثم دفعته
بكل قوتي، بل شعرت أن دفعي له
كان بقوة أكبر من قوتي، ولا أدري
كيف حدث ذلك. بقيت مصرة حتى
تحرك أخيرًا.

فرحت حين تحرك، وضحكت، قبل
أن يتلاشى فرحي حين صُدمت باللا
شيء الذي كان أسفله.

ما هذا بحق الجحيم؟ أهى لعبة ما؟

هل تعبت كل هذا التعب لأدرك أن
تعبى هباء؟

لا، لا، لا، لا يعقل، مستحيل. لا بد
أن أجد حلاً.

تذكرت ما فعلته الفتاة، وحاولت
بتركيز تقليدها وبدقة، لكن لا شيء
تغير. الخطوات تقترب أكثر.

أهى حقيقة هذه المرة؟

أطلقت تنهيدة طويلة، ثم قررت
الاستسلام. وقفت وسط مكان السرير
بالضبط، مسلمة نفسي لما سيحدث،
أيًا كان.

فُتحت فوهة تحتي مباشرة لتبتلعني
الأرض فجأة. صرخت صرخة لم
تنتهِ إلا بوقوعي على السطح. كانت
فترة وقوعي طويلة، مما أعطاني
فكرة عن مدى العمق الذي وصلت
إليه.

فترة، كالعادة مجهولة، مرت قبل أن
أبدأ بالاستيقاظ وأتحسس الرمال
بأناملي. يبدو أنني كنت فاقدة للوعي.

فتحت عيني، فلم أرَ سوى الظلام.
اعتدلت جالسة، ثم وقفت بصعوبة

بالغة. كان جسدي منهكًا إلى حد
يصعب وصفه.

أخذت عدة خطوات قبل أن تسترجع
ذاكرتي المكان. بدأت أشعر أنني
أعرفه، ثم تذكرت كيف أوصلني
المرّة الماضية إلى مملكة الخاء.

أسيفعل ذلك مجددًا؟ أم أن الأمر
مختلف هذه المرّة؟

إنه أشبه بممر، وتسقطني الرمال
أيضًا. إنه المكان ذاته.

أخشى أن أعود إلى المكان ذاته.

واصلت العدو حتى رأيت فوهة النفق
التي كانت، بالضبط كما يقال، نورًا

في نهاية النفق. هرولت نحوه لأتفاجأ
بما رأيت في الخارج.

جبل الرمال ذاته الذي تدرجت منه
سابقاً؟

الهاجس بدأ يتنامى بداخلي أكثر.
ترددت قبل أن أصعد ذلك الجبل
الذي كان صعوده شبه مستحيل. كان
شاقاً إلى حد لم أكن لأتحمله لو لم
أفكر في احتمالية كونه السبيل
لعودتي إلى عالمي.

صعدت لما يقارب نصف الطريق
قبل أن أسقط مغشياً عليّ...

ما إن أغمضت عينيّ حتى داهمني
الكثير من المشاهد المروعة: موت

كل من رأيت موته، فلورا،
أصدقائي، أبواي. ووسط جثثهم كانت
تتردد تهديدات العجوز.

كانت تظهر وسط تلك الفوضى بأبشع
شكل رأيتها عليه، أنياب بارزة
متوحشة حادة كالسيف، تقطر دمًا
كما لو أنها التهمت أناسًا لتوها.
جسمها مغطى بوشوم على شكل
أفاع، لكنها كانت تتحرك كما لو لم
تكن مجرد وشم. كانت تطلق فحيحًا
يتقاطع مع صوت العجوز الذي كان
يشبه الفحيح هو الآخر.

كانت تتوعدني بأن تقلب واقعي إلى
جحيم لا يقل بشاعة عن كوابيسي،
تتوعدني بأن تكون أكبر مخاوفي.

كانت غاضبة إلى حد جعل ذلك
الاعتیاد من أسوأ ما رأيت، كان أبشع
ما واجهته طيلة حياتي.

استيقظت مرتعبة، وجسدي يرتجف
فيما هو أشبه بنوبة هلع. كنت أتنفس
بصعوبة، وكان قلبي يدق بعنف
مضطرب. وقفت دون وعي
وركضت مبتعدة عن تلك الرمال. لم
أكن أعرف الوجهة حتى وجدتني
أسقط من القمة متدحرجة.

ولم ألبث أن أصل إلى سطح الجانب
الآخر حتى ركضت مجددًا. تخيلت
تلك الأفاعي الموشومة تلاحقني. لم
يكن ذهني وقتها يفكر في أي شيء
سوى الركض والنجاة.

واصلت الركض حتى عدت لذلك
الشاطئ مجددًا، لكن ذلك لم يوقفني
البتة. توغلت في المياه أكثر حتى
غرق في أعماق المياه. رغم أنني
كنت أختنق تحت البحر، إلا أن ذلك
أيضًا لم يوقفني. كنت أود مواصلة
الركض، لذا حاولت السباحة بعنف،
ثم سقطت في حفرة وعرة. ارتطم
رأسي بصخرة أفقدتني الوعي...

أصوات أجهزة تتسلل إلى مسامعي.

فتحت عيني نصف فتحة، ودرت
بنظري في المكان. أنا محاطة بالكثير
من الأجهزة الطبية. هذا أعادني إلى
ذكرى رؤية أختي من خلف الزجاج
مع تلك الفتاة.

ترى أتكون تلك الفتاة أنا؟!!

صُدمت حين علمت أنني في غرفة
في مستشفى ما، ثم ألقيت نظرة على
المرأة الجالسة بجانبني، واضعة
رأسها على سريري غارقة في النوم.

شعرت بإحساس غريب حين نظرت
إليها، كما لو أنني أعرفها. لم أكن
أرى وجهها، فوضعت يدي على
كتفها. اجتاحتني مشاعر أكثر قوة.
رفعت وجهها، ولم أصدق أنها أختي
رغم رؤيتي لذلك.

قالت بدموع فرح:

«أختي.»

إنه صوتها، ولكن لا أزال لا أصدق.
لقد تخيلتها في الكثير من المرات،
ولا بد أنها الآن أيضاً مجرد خيال.

نفضت رأسي محاولة طردها منه،
لكنها بقيت في مكانها تنظر إليّ.
كانت تنظر إليّ بذهول قبل أن تقول:

«أختي، لقد عدتِ لوعيك أخيراً.»

كنت مترددة، لم أرد أن تتلاشى
مجدداً ككل مرة، لذا لم أجروء على
معانقتها. لكن ذلك لم يدم طويلاً،
فسرعان ما تشبثت بها، مرتعبة من
فكرة اختفائها وابتعادها عني مجدداً.

رغم ذلك التشبث، لا يزال جزء مني
لا يصدق، ليس متأكداً من حقيقة

وجود ما بين أحضانه. لا أدري لماذا
في كل مرة، سواء كان الحدث خياليًا
أو حقيقيًا، تكون مشاعري ذاتها.

لم أستطع منع نفسي من الشعور
بوجود أختي، من الفرح لملاقاتها بعد
أن توقعت ملاقة حتفي. لم أستطع
منع نفسي من أن أجهش في البكاء!

بكت أختي هي الأخرى، كانت تقول
وسط بكائها بصوت متقطع:

«لقد خفت ألا تعودني، حمدًا لله على
عودتك، لا تتركيني مجددًا.»

كانت هي من تقول تلك الكلمات،
لكنها لم تكن تعلم أنها تعطي صوتًا
لكلماتي المكتومة. اكتفيت بالتشبث

بها باكية، وكأني أعدها بتلك
الطريقة:

«لن أتركها مجددًا مهما حدث»...

بعد عناق طويل، وذرف دموع لم
أكن أعلم أنها لا تزال في عيني،
بدأت أهدأ قليلًا. بدأت أسأل أختي
عن كل ما لم أعلمه:

ما الذي يحدث؟

كيف وصلت إلى هنا؟

منذ متى وأنا هنا؟

تذكرت أبوي، فسألت بخوف يكاد
يتحول إلى نوبة هلع:

- أين أبي وأمي؟

كنت مشتتة، تائهة، ومدمرة في الوقت ذاته. لاحظت أختي ذلك، فحاولت تهدئتي دون إجابة.

أدلفت مجموعة من الممرضين إلى الغرفة، ثم شعرت مجددًا بأحدهم يغرزني بإبرة أفقدتني الوعي، لأعود لذاك الاعتياد البشع مجددًا... حتى لو قررت الآن الغرق في دوامة الخاء مجددًا فلن أستطيع، ضاعت ملابسي في ذلك المكان، هل يعني ذلك أنني سأعود لما كنت عليه؟ سأضطر لمواجهة غضب العجوز؟

في المرة الماضية حين غضبت،
أرتني موت أبويّ، هل ستقتل أخي
هذه المرة؟

لا أدري، لا أدري، كل ما أعرفه أن
جدران هذه الغرفة ضيقة جدًا، تقتلني
وأنا على قيد الحياة، لم أعد أحتملها،
رغم فخامتها بدت كالتابوت الذي
أختنق بداخله، هل من الحكمة أن
أصرخ الآن؟

ماذا لو سمعتني العجوز؟

تبًا للحكمة!

صرخت بأعلى صوتي، بكل ما تبقى
لي من طاقة حتى خارت قواي،
مسكت إحدى الشرافف وانكملت

على نفسي أبكي بحرقة، لم أعد أقوى
حتى على البكاء، بحّ صوتي فلم
يستطع حتى أن يئن، تركت الدموع
تذرف عليها تطفئ النار المشتعلة
داخلي، لكنها كانت حارة كاللهب، ثم
سمعت خطوات أحدهم قادمًا، لا شك
أنها العجوز، حفظت صوت
خطواتها، كان أشبه بصوت مطرقة
القاضي بعد نطقه بحكم إعدامي،
كصوت الجرس حين يعلن انتهاء
الوقت بينما لم أكتب شيئًا في ورقة
امتحان، هل رسبت؟ هل أعدمتم؟

لا، ليس بعد، عليّ قلب الموازين،
عليّ تغيير كل ذلك، وقفت مجددًا
أمعن النظر في ذلك السرير اللعين،
لكن هذه المرة تخيلته هو ما يثقل

كاهلي، هو السبب بكل ما عشته،
عليّ دفعه حتى لو كُسرت عظامي
عظمة عظمة، حتى كلفني الأمر
حياتي، عليّ إزاحته، وضعت كتفي
على حافته، ثم دفعته بكل قوتي، بل
شعرت أن دفعي له بقوة أكبر من
قوتي، ولا أدري كيف ذلك، بقيت
مصرة حتى تحرك أخيرًا، فرحت
حين تحرك، ضحكت قبل أن يتلاشى
فرحي حين صُدمت باللا شيء الذي
كان أسفله، ما هذا بحق الجحيم؟ أهني
لعبة ما؟

هل تعبت كل هذا التعب لأدرك أن
تعبني هباء؟

لا، لا، لا، لا يعقل، مستحيل، لا بد
أن أجد حلاً.

تذكرت ما فعلته الفتاة، وحاولت
بتركيز تقليدها وبدقة، لكن لا شيء
تغير، الخطوات تقترب أكثر، أهى
حقيقة هذه المرة؟

أطلقت تنهيدة طويلة، ثم قررت
الاستسلام، وقفت وسط مكان السرير
بالضبط، مسلّمة نفسي لما سيحدث،
أيّا كان.

فُتحت فوهة تحتي مباشرة لتبتلعني
الأرض فجأة، صرخت صرخة لم
تنتهِ إلا بوقوعي على السطح، كانت
فترة وقوعي طويلة، مما أعطاني
فكرة عن مدى العمق الذي وصلت

إليه، فترة كالعادة مجهولة مرت قبل
أن أبدأ بالاستيقاظ وأتحسس الرمال
بأناملي، يبدو أنني كنت فاقدة للوعي،
فتحت عيني فلم أر سوى الظلام،
اعتدلت جالسة، ثم وقفت بصعوبة
بالغة، كان جسدي منهكًا إلى حد
يصعب وصفه.

أخذت عدة خطوات قبل أن تسترجع
ذاكرتي المكان، بدأت أشعر أنني
أعرفه، ثم تذكرت كيف أوصلني
المرة الماضية إلى مملكة الخاء،
أسيفعل ذلك مجددًا؟ أم أن الأمر
مختلف هذه المرة؟

إنه أشبه بممر، وتسقطني الرمال
أيضًا، إنه المكان ذاته، أخشى أن

أعود إلى المكان ذاته، واصلت العدو
حتى رأيت فوهة النفق التي كانت
بالضبط كما يقال، نورًا في نهاية
النفق، هرولت نحوه لأتفاجأ بما
رأيت في الخارج، جبل الرمال ذاته
الذي تدحرجت منه سابقًا؟

الهاجس بدأ يتنامى بداخلي أكثر،
ترددت قبل أن أصعد ذلك الجبل
الذي كان صعوده شبه مستحيل، كان
شاقًا إلى حد لم أكن لأتحمله لو لم
أفكر في احتمالية كونه السبيل
لعودتي إلى عالمي، صعدت لما
يقارب نصف الطريق قبل أن أسقط
مغشيًا عليّ...

ما إن أغمضت عينيَّ حتى داهمني
 الكثير من المشاهد المروعة، موت
 كل من رأيت موته، فلورا،
 أصدقائي، أبواي، ووسط جثثهم كانت
 تتردد تهديدات العجوز، كانت تظهر
 وسط تلك الفوضى بأبشع شكل رأيتها
 عليه، أنياب بارزة متوحشة حادة
 كالسيف، تقطر دمًا كما لو أنها
 التهمت أناسًا لتوها، جسمها مغطى
 بوشوم على شكل أفاع، لكنها كانت
 تتحرك كما لو لم تكن مجرد وشم،
 كانت تطلق فحيحًا يتقاطع مع صوت
 العجوز الذي كان يشبه الفحيح هو
 الآخر، كانت تتوعدني بأن تقلب
 واقعي إلى جحيم لا يقل بشاعة عن
 كوابيسي، تتوعدني بأن تكون أكبر

مخاوفي، كانت غاضبة إلى حد جعل
ذلك الاعتياد من أسوأ ما رأيت، كان
أبشع ما واجهته طيلة حياتي،
استيقظت مرتعبة وجسدي يرتجف
فيما هو أشبه بنوبة هلع، كنت أتنفس
بصعوبة، كان قلبي يدق بعنف
مضطرب، وقفت دون وعي
وركضت مبتعدة عن تلك الرمال، لم
أكن أعرف الوجهة حتى وجدتني
أسقط من القمة متدحرجة، ولم ألبث
أن أصل إلى سطح الجانب الآخر
حتى ركضت مجددًا، تخيلت تلك
الأفاعي الموشومة تلاحقني، لم يكن
ذهني وقتها يفكر في أي شيء سوى
الركض والنجاة، واصلت الركض
حتى عدت لذلك الشاطئ مجددًا، لكن

ذلك لم يوقفني البتة، توغلت في المياه
أكثر حتى غرقت في أعماق المياه،
رغم أنني كنت أختنق تحت البحر،
إلا أن ذلك أيضاً لم يوقفني، كنت أود
مواصلة الركض، لذا حاولت السباحة
بعنف، ثم سقطت في حفرة وعرة،
ارتطم رأسي بصخرة أفقدتني
الوعي...

أصوات أجهزة تتسلل إلى مسامعي،
فتحت عيني نصف فتحة، درت
بنظري في المكان، أنا محاطة
بالكثير من الأجهزة الطبية، هذا
أعادني إلى ذكرى رؤية أختي من
خلف الزجاج مع تلك الفتاة، ترى
أتكون تلك الفتاة أنا؟!!

صُدمت حين علمت أنني في غرفة
 في مستشفى ما، ثم ألقيت نظرة على
 المرأة الجالسة بجانبني، واضعة
 رأسها على سريري غارقة في النوم،
 شعرت بإحساس غريب حين نظرت
 إليها، كما لو أنني أعرفها، لم أكن
 أرى وجهها، فوضعت يدي على
 كتفها، اجتاحتني مشاعر أكثر قوة،
 رفعت وجهها، ولم أصدق أنها أختي
 رغم رؤيتي لذلك، قالت بدموع فرح:
 «أختي»، إنه صوتها، ولكن لا أزال
 لا أصدق، لقد تخيلتها في الكثير من
 المرات، ولا بد أنها الآن أيضاً مجرد
 خيال، نفضت رأسي محاولة طردها
 منه، لكنها بقيت في مكانها تنظر
 إلي، لم تختفِ، كانت تنظر إلي

بذهول قبل أن تقول: «أختي، لقد
عدتِ لو عليك أخيرًا».

كنت مترددة، لم أرد أن تتلاشى
مجددًا ككل مرة، لذا لم أجروُ على
معانقتها، لكن ذلك لم يدم طويلًا،
فسرعان ما تشبثت بها، مرتعبة من
فكرة اختفائها وابتعادها عني مجددًا،
رغم ذلك التشبث لا يزال جزء مني
لا يصدق، ليس متأكدًا من حقيقة
وجود ما بين أحضانه، لا أدري لماذا
في كل مرة، سواء كان الحدث خياليًا
أو حقيقيًا، تكون مشاعري ذاتها، لم
أستطع منع نفسي من الشعور بوجود
أختي، من الفرح لملاقاتها بعد أن
توقعت ملاقة حتفي، لم أستطع منع
نفسي من أن أجهش في البكاء!

بكت أختي هي الأخرى، كانت تقول
وسط بكائها بصوت متقطع: «لقد
خفت ألا تعودني، حمدًا لله على
عودتك، لا تتركيني مجددًا».

كانت هي من تقول تلك الكلمات،
لكنها لم تكن تعلم أنها تعطي صوتًا
لكلماتي المكتومة، اكتفيت بالتشبث
بها باكية، وكأني أعدها بتلك
الطريقة: «لن أتركها مجددًا مهما
حدث...»

بعد عناق طويل، وذرف دموع لم
أكن أعلم أنها لا تزال في عيني،
بدأت أهدأ قليلًا، بدأت أسأل أختي
عن كل ما لم أعلمه: ما الذي يحدث؟

كيف وصلت إلى هنا؟

منذ متى وأنا هنا؟

تذكرت أبويّ، فسألت بخوف يكاد
يتحول إلى نوبة هلع:

- أين أبي وأمي؟

كنت مشتتة، تائهة، ومدمرة في
الوقت ذاته. لاحظت أختي ذلك،
فحاولت تهدئتي دون إجابة. أدلفت
مجموعة من الممرضين إلى الغرفة،
ثم شعرت مجددًا بأحدهم يغرزني
بإبرة أفقدتني الوعي، لأعود لذاك
الاعتياد البشع مجددًا...

كان الطبيب، بعد نوم الويزيانا إثر
التخدير، خارج الغرفة مع أختها
إيميلي:

- حالتها ليست جيدة الآن، وليست
مستعدة لمعرفة الحقيقة بعد. أعصابها
متعبة، ويبدو أنها تواجه مشاهد قاسية
تجعل صحتها النفسية في تراجع
دائم. حاولي ألا تزعجها في الفترة
القادمة، فستكون الأيام القادمة صعبة
عليها.

اكتفت إيميلي بإيماءة للطبيب قبل أن
يغادر، وهي تنظر إلى أختها من
خارج الغرفة بعيون دامعة. دخلت
الغرفة، جلست على الكرسي المقابل
لسرير أختها، أمسكت يديها وقبلت

ظهريهما، ثم أخذت تربت على
رأسها بحنو، متذكّرة ما أوصلها إلى
هذا الحال...

قبل أكثر من عام:

عُثر على جثث ثلاثة فتيان وثلاث
فتيات في غابة مارشال. كانوا قد
قُتلوا بطريقة وحشية، كما لو أن
وحوشًا افترستهم. وسط تلك الجثث
الست، كانت فتاة فاقدة للوعي. انتشر
الخبر ليصل إلى عائلة روكفلر في
نيويورك، لتُصعق بكون ابنتها
الوزيريانا هي نفسها الفتاة التي عُثر
عليها بين الجثث.

دخلت الوزير حينها في غيبوبة
استمرت لأكثر من عام. توفي أبواها

خلال تلك الفترة إثر حادث مروع،
واستلم ابنهما أدريان أعمالهما بعد
موتهما. لم يعد يجد وقتًا لزيارة أخته،
عكس إيميلي التي لازمت أختها بعد
وفاة والديهما، بعد أن كانت تزورها
من وقت لآخر.

لم يستطع الأطباء معرفة سبب
تدهور حالة الويز وعدم استيقاظها
بعد كل ما مر من الوقت. وبعد يأسهم
من إحداث تغيير في حالتها، قرروا
إعادتها إلى منزلها ومواصلة علاجها
هناك، غير أن أختها رفضت ذلك،
معتقدة أن بقاءها في المستشفى
سيجعل شفائها أسرع.

بقيت معها طيلة عام ونصف. رغم
اليأس الذي يتوغل بداخلها يومًا بعد
يوم، بقيت متشبثة بذلك الأمل
الخافت، وبقيت بجانب أختها على
أمل استيقاظها يومًا ما. كانت تدفع
أموالًا طائلة مقابل ذلك الأمل...

انقطع سرحان إيميلي حين لاحظت
عودة أختها للوعي مجددًا.

كانت الويز وقتها قد أفزعت للتو إثر
كابوسها المروع الذي يصبح أبشع
مرة بعد أخرى. كانت رؤية جثمان
أبويها بتفاصيل أدق لجروحهما تزيد
من بشاعة الأمر وقساوته. كانت
منهكة، فلم تلجأ للصراخ هذه المرة،
إنما توسلت لأختها بعينيها:

- أختي، أرجوك، فقط قل لي شيئاً
واحداً، كيف حال أبويننا؟ لم لم
أرهما؟ قل لي إنهما بخير، هذا كل ما
أريده.

كان صمت أختها كافياً لإشعارها بأن
ما تخشاه قد حدث بالفعل، لكنها لم
تقبل تصديق ذلك، لذا رفعت صوتها
أكثر، رغم ما في ذلك من إجهاد:

- لا تبقي صامتة هكذا، قل لي إنهما
بخير، ما بك؟

بدأت أختها تدرك أن صمتها سيجعل
حالة أختها تسوء أكثر، لذا قالت وهي
تربت على كتفها محاولة تهدئتها:

- كل شيء على ما يرام، أنت مرهقة فقط. خذي قسطاً من الراحة وسنتحدث فيما بعد، ما يجول في خاطرك لا أساس له...

انفعلت الويز أكثر، وبدأ صوتها يتحول إلى صراخ هستيري:

- أنت لا تقولين الحقيقة! تودين إخفاء كل شيء عني! ما الذي يحدث هنا بحق الجحيم؟ ما الذي تخفيه عني؟

أدلف الممرضون إلى الغرفة مجدداً، وما إن رأتهم الويز حتى ارتعبت وتشبثت بأختها مستجدة، وهي تردد:

- لا أريد العودة إلى هناك، أرجوك، أوقفهم! أنقذيني منهم! ساعديني

أرجوك، أتوسل إليك. أعدك، لن
أصرخ مجددًا، سأكون هادئة، لكن لا
تعيدوني إلى هناك!

تقول ذلك وهي تعلم جيدًا ما الذي
ينتظرها بعد تخديرها. قد يكون ما
تعيشه في واقعها قاسيًا، لكنه لا
يضاهي ما تراه في ذاك العالم
المروع.

كانت حالتها مزرية ومثيرة للشفقة،
مما دفع أختها للبكاء رغم محاولتها
إخفاء ذلك. حاولت كتم صوت نحيبها
وحبس دموعها، بينما أخذ ما يقارب
خمسة ممرضين يسحبون الويز من
بين أحضانها، وسط بكائهما
واستنجاد الويز بأختها.

بعد عراك دام لوقت ليس باليسير ،
تمكنوا من تخدير الويزيانا، حتى
فقدت الوعي مجددًا، ولا تزال مقلتهاها
تذرفان الدموع...

تكررت تلك الحادثة أكثر من مرة،
وبقيت تتكرر لفترة، زار أدريان
خلالها أخته قبل بدء جلساتهما مع
الأطباء النفسيين. كانوا يحدثونها في
كل مرة بعد استيقاظها، حتى
أخبروها بكل ما حدث منذ زيارة
غابة مارشال.

كان وقع كلماتهم قاسيًا عليها، لكنها
استعادت هدوءها بعد فترة
قضتها في صراخ دائم، وأصبحت
تميل إلى الصمت أكثر. بقيت في

المستشفى لشهر قبل تخريجها، وبعد
غياب طويل عادت إلى قصرها.

الوزير:

لا أدري، مر هذا الشهر عليّ، تتالت
عليّ الصدمات حتى كدت أصاب
بالتبدل. طيلة هذه الفترة، كانت
الاعتيادات تنكش ما تبقى من أشلاء
قلبي المحطم. لم يكن الأمر واقفاً
على تلك المشاهد المروعة، بل فكرة
فراق أختي كانت أشد قسوة. أتشبت
الآن بالأمل لإنقاذ أختي، وأستمد
قوته من عدم رؤيتي لموتها في أي
اعتياد. قد لا يكون الأمر منطقيًا، لكن
إن أردت إنقاذها فعليّ الإقلاع عن
النوم بشكل كلي. أنا متأكدة أن أحدًا

عاقلاً لن يصدق الأمر، ولن أحاول
إقناعه بصحته، ولن أخبره به حتى.
سأحتفظ بهذا السر اللامنطقي لنفسي،
وسأحاول تحمل كل ما سينتج عن
ذلك.

عدت مع أختي اليوم إلى القصر.
غبت طويلاً، ولا أدري كيف سيكون
شعوري حين أعود. كل ما أعرفه أن
خروجي من المستشفى سيساعدني
فيما عزمت عليه.

حين وصلنا إلى بوابة القصر، مر
كل ما حدث أمام عينيّ كشريط من
الماضي. شعرت بغصة بعد تذكر
أبويّ، وشعرت برغبة في البكاء،
لكني لم أرد إثارة قلق أختي. دائماً ما

يكون حزني عبئاً تحمله على كاهلها
دون تذمر، لكنني أرى بوضوح
تأثرها بكل ما يحصل. تماسكت
وبقيت صامته حتى ولجنا إلى
الداخل.

استأذنتها للصعود إلى غرفتي في
الطابق العلوي. اتجهت نحو غرفتي،
لكن رؤية غرفة أبوي جعلت قدمي
تسحباني إليها.

تفحصت كل تفصيل فيها، وتمهلت
في كل زاوية، وتذكرت كل
الذكريات التي عشتها فيها رغم قلتها.
ربما لم تكن علاقتي جيدة بهما، لكن
انكساري حين سمعت خبر وفاتهما،
بل قبل ذلك حين رأيتهما، لا يعني

سوى أنني كنت أكن لهما حبًا لم
أعترف به حتى لنفسي. بدأت الغرفة
تزعجني ويخنقني ضيقها، فخرجت
منها على الفور متجهة إلى غرفتي.

لا تزال كما هي، كما لو غادرتها
أمس. ابتسمت حين تذكرت أختي،
هي من أبقاها هكذا بالتأكيد. كانت
غرفتي كبيرة، كما لو كانت منزلًا
منفصلًا عن القصر. كان بها حمام
فخم منفصل عن دورة المياه،
ومساحة شاسعة بها كل مستلزمات
من ثياب وأحذية وغير ذلك. في
الجانب الآخر، مرآتي الفخمة
الكبيرة، كما لو أنها لثلاثة أشخاص.

درت بنظري في الغرفة لأستشعر كم
أنا مرفهة، وكم قدمت لي الدنيا مما
قد يحتاجه أي آدمي ليكون سعيدًا،
وكيف حرمتني في الوقت ذاته من
الشعور بالسعادة وسط كل هذا،
وكانها تحاول إيصال فكرة ما لي!

ألقيت نظرة على سريري الضخم
المغطى بغطاء حريري، فتذكرت
ذلك السرير اللعين، ثم عدت بنظري
إلى المرأة. ذكرتني بما حدث في ذلك
العالم المروع.

أمعنت النظر في انعكاسي لأسترجع
ما قالته عن حياتي في تلك الليلة
اللينة:

«قالت إنها فارغة، وإنني غير
محصنة.»

ترى ما الذي تقصده بذلك؟ هل
حياتي فارغة بالفعل؟ ترى ما الذنب
الذي اقترفته ليحدث ما حدث؟

قصة الكوابيس معي منذ الصغر...

أطلقت تنهيدة حين عجزت عن فهم
هاتين الكلمتين:

«فارغة - محصنة»

حاولت طرد الأمر من تفكيري،
وأمعنت النظر في شكلي في المرآة.
لم أمعن النظر فيه منذ عامين. زاد

عمري بعامين كاملين دون أن ألحظ،
وا حسرتاه!

عدت بذاكرتي إلى الوراء: فلورا،
أصدقائي، تخرجي، أسري...
شعرت بغصة في حنجرتي حين
تذكرت الأسر.

تذكرت نفسي حين كنت أتحسر على
حالتي، حين أردت الاحتكاك بالناس
مخفية حقيقتي. الأمر مختلف الآن.
الآن لا أود أصدقاء ولا حفلات ولا
سياحات. سئمت تلك المحاولات
وتلك الرغبة. تنهدت، لاعنةً حالتي
وحياتي ككل.

تذكرت أختي، فاعتدلت في وقفتي،
معاهدةً نفسي:

لن أسجنها معي في دوامة الجنون
خاصتي. لها الحق في عيش حياة
أفضل و... .

انتفض جسدي حين رأيت ما كان
خلفي في المرأة.

كانت العجوز، مع ابتسامة لا يخف
ارتعابي منها مهما رأيتها.

التفتُ إلى الخلف، فلم أرَ سوى
الفراغ.

وضعت يدي على قلبي وأنا أتنفس
الصعداء.

القادم أصعب، لا شك.

ما ينتظرني أصعب. إن رفضت
ملاقاتها في النوم، لا شك أنها
ستحاول إجباري على ذلك. عليّ أن
أصمد.

«من أجل أختي.»

هكذا حاولت طمأنة نفسي وتشجيعها.
ألقيت نظرة على الساعة:

0513:

الساعة الواحدة، أخي قادم في الثالثة،
سيتغدى معنا كما قالت أختي. عليّ
أخذ قسط من الراحة إلى ذلك الحين.

اتجهت نحو الحمام لأخذ حمام طويل
لطالما اشتقت له، ثم اتجهت نحو

دولاب الملايس. عليّ انتقاء فستان
فخم راقٍ أخبرهما من خلاله أنني
على ما يرام، وقد عدت كما كنت،
وأفضل.

انتقيت فستانًا حريريًا بنفسجيًا بلا
أكمام، مع فتحة في جانبه الأيسر.
يبدو مناسبًا.

ارتديته، ثم وقفت أمام المرآة أضع
بعض المساحيق. عليّ التصرف
بشكل طبيعي. تجهزت لذلك الغداء
كما لو أنه مناسبة كبيرة. ربما كان
في الأمر مبالغة، لكنني أردت بالفعل
طمأنتهما.

نزلت من الدرج بعد الموعد بدقائق،
فوجدتهما على السفرة بانتظاري.

افتقدت والديّ لبرهة، ثم أقنعت نفسي
أن أخويّ هما كل عائلتي الآن،
وعليّ التمسك بهما بدل التعلق بما لم
يعد له وجود.

رسمت ابتسامة مطمئنة على وجهي
حين جلست على المقعد المقابل
لأختي، والمجاور لأخي في الوقت
ذاته. كانا مبتسمين تعبيراً عن
اشتياقهما لهذه الجمعة وامتنانهما لها.

قالت أختي بمزاح اشتقت له:

- أهلاً بأميرة روكفلر.

ثم انحنيت قائلة:

- نتمنى أن ينال الطعام إعجاب
سموك.

ضحكنا على كلامها، ثم قال أخي
متفحصًا ثيابي:

- معها حق، فمن يركِ يظن أن اليوم
موعد تتويجك!

قلت بابتسامة:

- السبب اشتياقي لهذه الملابس.

بدأنا أكلنا وسط مزاحنا من وقت
لآخر، واسترجاعنا لذكريات جميلة
قديمة. كثيرًا ما كنت مع أختي في
لحظات مماثلة، عكس أخي الذي لا

أذكر آخر مرة تحدثت معه بهذا
الدفء.

كنت مستمتعة في ذلك اليوم كما لو لم
أكن أنا!

وضعت أختي يدها على كتفي قائلة
بعطف وامتنان:

- فليبقَ وجهك ضاحكًا على الدوام،
فهذا ما يليق به.

ابتسمت لها بدفء، فوضع أخي يده
على يدي بحنان قبل أن يبدأ في
الاعتذار عن تقصيره:

- أعرف أنني لم أكن يومًا الأخ
المثالي، لكن إن أعطيتني فرصة

فسأكون أكثر من ذلك. سأبذل
قصارى جهدي لأعوضك عن كل ما
مضى.

أمسك يد أختي هي الأخرى، ثم قال
مبادلاً نظراته بيننا:

- نحن الآن لا نملك سوى بعضنا.
علينا أن نكون عائلة لبعضنا.

لم أر أخي بهذا الحنان من قبل، لكنني
سعدت لما قاله، ولا أدري لماذا
تأثرت به حتى دمعت عيني.

تعانقنا ثلاثتنا بفرح غامر. كانت
أجواء ملؤها الدفء العائلي في ذلك
اليوم.

بعد الغداء، ذهبنا في مشوار إلى
شاطئ «لونغ آيلاند».

كان يومًا رائعًا بحق. تبادلنا
الأحاديث كما أردنا تعويض عامين
كاملين من الصمت والفراق.

أخبرني أخي أن أبوي احتفلا بعيد
ميلادي الماضي حين كنت غائبة عن
الوعي، وسجلا قصرنا المطل على
البحر في «هامبتونز» باسمي كهدية
عيد ميلاد.

سعدت بالخبر أكثر من سعادتي
بالهدية، رغم أنني أفضل قضاء
معظم وقتي بمفردي.

لا أحب الأماكن المزدحمة. فكرة
القصر المستقل المطل على البحر
راقت لي إلى أبعد حد.

علمت أيضاً بقصة «ماكمهون»،
حبيب أختي الذي أجّلت زواجها به
إلى أن أستعيد عافيتي.

سعدت لكونها التفتت إلى حياتها بعد
تجنبها ذلك لأجلي لوقت طويل. زاد
إصراري على حمايتها وعدم السماح
لها بملاحظة أي خوف قد أتعرض
له.

رغم سعادتي بهذه اللحظات، لكن
هدوءها أزعجني.

لا شك أن شيئاً فظيئاً بانتظاري بعد
هذا الهدوء المريب.

انتهى ذلك اليوم بعد أن عشت أجمل
اللحظات وأدفاها مع أخويّ.

عدت منهكة في ذلك اليوم. أوهمت
أختي أنني سأخلد إلى النوم، وأني لم
أعد أرى الكوابيس كالسابق. رغم
عدم صحة ما قلته، إلا أن الفرح الذي
رأيت في عينيها جعلني أشعر بأن
الأمر كذلك، وإن لم يكن حقيقة. ما
فعلته هو السبيل الوحيد كي تلتفت
أختي إلى حياتها.

لا أدري كيف سأتحمل القادم
بمفردي، لكنني اكتفيت من تقييد
أختي. لم أعد أود إزعاجها فيما ليس

لها فيه ذنب. لها الحق فيما هو أفضل
من حياة بائسة كحياتي.

عدت إلى غرفتي، لا أدري ما الذي
سيشغلني عن النوم. الليل طويل،
ومن الصعب أن أسيطر على نفسي
ما لم أنشغل بأمر ما.

أخذت حمامي الطويل المعتاد، ثم
بدلت ملابسني إلى أخرى أكثر راحة.

لفتني دفتر مذكرات كنت قد اشتريته
يومًا نأوية الكتابة فيه، لكنني لم أفعل.
خطر لي أن أكتب فيه الآن. أحتاج
إلى تفريغ ما بداخلي، ولن أجد
منصتًا أفضل منه.

بدأت بحادثة غابة مارشال، ثم
واصلت الكتابة حتى قصة دوامة
الخاء. ابتسمت حين كتبت ذلك عنواناً
لها. كتبت في ذلك الدفتر كل ما
شعرت به وما أشعر به الآن، كتبت
فيه كل ما عشته، وجعلت منه البئر
الذي صببت فيه كل أسرارى.

أنهيت الكتابة في وقت متأخر، ثم
خبأت الدفتر في أحد الأدراج.

لا يزال الوقت طويلاً قبل بزوغ
الفجر.

عليّ أن أنشغل بأمر آخر.

بحثت في الغرفة عن أي شيء أنشغل
به، فوقعت عيناى على أحد كتب علم

النفس التي ابتعتها فترة دراستي. لم
أكن قد قرأته بعد.

تذكرت تلك المقولة التي تقول: «إن
كل طبيب نفسي كان قبل ذلك مريضاً
نفسياً في فترة ما.»

ربما هذا ما سيحدث معي.

ابتسمت لتلك الخاطرة.

لقد قضيت فترة أتلقي العلاج النفسي،
لكني لم أكن يوماً أطمح لأن أكون
طبيبة.

لم أكن أفكر في العمل بشكل جدي،
خططت للتوقف بعد التخرج. اخترت
تخصص علم النفس لحبي له، كما

كنت أبحث عن من يشبه حالتي،
وعدم عثوري على ذلك أفقدني
الشغف.

لا أدري حتى ما إن كان ما أواجهه
نفسياً أم غير ذلك.

قرأت الكتاب على أية حال. قضيت
تلك الليلة وأنا أجرب كل شيء بدافع
الفراغ.

لكنني أحببت فكرة الكتابة، فقد
أراحتني إلى حد ما.

تكررت تلك الليلة أكثر من مرة. مر
الكثير من الليالي المماثلة.

اشتريت الكثير من الكتب، كما
عشقت الكتابة عن كل ما أشعر به أو
أعيشه أو حتى أقرأ عنه. تناوبت بين
الكتابة والقراءة طيلة فترة طويلة،
لكني لم أكن مطمئنة تمامًا.

عدم رؤيتي للعجوز منذ قصة المرأة
جعلني متوجسة.

للحظة ظننت أن كل شيء قد انتهى.
ألقيت نظرة على أصبعي، فوجدت
الوشم لا يزال في مكانه. تذكرت
حين قالت أختي إنها لا تراه، بعد أن
سألتها بشكل غير مباشر.

وقفت أمام المرأة فترة، ممعنة النظر
فيها، لكن شيئًا لم يحدث.

مرت فترة طويلة لم يعترني فيها أي
رعب. ربما كان أحدهم يجهزني
لأمر ما. أصررت على عدم النوم
على أية حال.

بدأ الإرهاق ينهك جسدي، كما
أحاطت عينيَّ هالات سوداء كادت
تفضحني لو لم أغطيها بكم هائل من
المساحيق. بدأت عيناوي تتغلغان لا
إرادياً، مما جعلني ألجأ لبعض
الأدوية المضادة للنعاس.

لا أصدق وصولي لمرحلة كهذه.

ربما رأيت أحداً يستعمل حبوباً منومة
من قبل، لكنني لم أرَ العكس قط!

حاولت جاهدة، رغم كل ما يحدث،
إخفاء الأمر عن أخويّ، وكدت
أطمئن أن كل شيء قد انتهى قبل تلك
الليلة...

كنت منبطحة على سريرى، ناوية
بدء الكتابة كعادتي، لكن ذهني كان
مشتتًا، فلم أقوَ على خط حرف واحد.

بدأت الأفكار تتراقص في ذهني:

حين كنت أنام في المستشفى بفعل
المخدر من وقت لآخر، لمَ لم أرَ
سوى التهديد؟

لمَ لم تقم تلك العجوز بقتلي أو قتل
أختي على الفور، كما فعلت من قبل؟

كانت تلك فرصة مثالية، بل أكثر من فرصة.

وحتى بعد خروجي من المستشفى وإقلاعي عن النوم، لمَ لم تظهر لي؟

ترى ما الذي تخطط له؟

ما الذي تجهزه لي؟

تذكرت اختفاءها بالطريقة ذاتها بعد اكتشافي لمسألة الخيانة. كان ظهورها فظيعةً بعد ذلك حين قادتني إلى تلك المجزرة. لم أزل تحت تأثير تلك الحادثة إلى الآن.

إن كنت قد صُدمت وقتذاك رغم استمرار رؤيتي للاعتيادات قبل

الحادثة، فكيف الآن وأنا لم أرَ شيئاً
قط؟

بدأت تلك الأفكار تزعجني، وتنهش
عقلي بشكل مؤلم.

أردت إشغال تفكيري في أي شيء
آخر. أخذت كتباً وبدأت قراءتها
بصمت.

كانت الأجواء هادئة بالكامل،
والصمت مخيمًا على المكان. لم
أستطع التركيز في القراءة أيضًا،
فوضعت الكتاب جانبًا.

جلست على سريرى متأملًا الفراغ،
أفكر في الكثير.

إلى متى سيستمر الأمر؟

سأُكشف في يوم من الأيام دون شك.
سأفقد القدرة على الصمود. مظهري
سيُكشف كذبي، أو سينهيني ذلك
الكذب بهدوء دون علم أحد.

ما الذي أظن نفسي أفعله؟

أي جنون هذا؟

قاطع تفكيري صوت خافت خِلته من
دورة المياه.

اتجهت نحو دورة المياه ببطء وحذر.
ربما هذا ما خشيته، ربما عادت
مخاوفي كما توقعت.

هكذا كنت أفكر مرتعبة، قبل أن
أحاول تهدئة نفسي وطرده تلك
الأفكار.

فتحت الباب بهدوء، وفكرتان
تتصارعان بداخلي، إحداهما مطمئنة
والأخرى محذرة.

ثم رأيت ما حسم الأمر.

كان مكتوبًا على المرأة بما يشبه
الدماء، إن لم يكن هي:

«حان الموعد.»

واقفة على عتبة الباب، محاولة إخفاء
خوفي، قلت بصوت يحاول التماسك:

- من هنا؟ أرني نفسك، أنا لست
خائفة!

لا مجيب!

صوت خافت كالفحيح يقول ما كان
مكتوبًا على المرأة:

«حان الموعد.»

بدا الصوت قادمًا من خارج دورة
المياه، فخرجت على الفور، لكنني لم
أر سوى الفراغ!

صدر الصوت ثانيًا من داخل دورة
المياه.

عدت إليها، فوجدت الكتابة قد
اختفت!

كيف اختفت بهذه السرعة؟

بدأ الصوت يرتفع أكثر، يتناوب بين
داخل دورة المياه وخارجها. ألحقه
في كل مرة ثم يختفي، ليصبح في
النهاية داخل رأسي!

أجل، كان مرتفعًا جدًا. ضغطت على
أذنيّ، فلم يختفِ أو يخف، كما لو
كان مصدره رأسي!

كان مزعجًا، مؤلمًا، يثير جنوني
وخوفي في آن.

كنت أود التخلص من ذلك الصوت
بأي طريقة، مما دفعني لضرب
رأسي.

سمعت صوت بكاء مؤلم عند الباب،
عرفت أنه لأختي على الفور رغم ما
كان يضج به عقلي. خرجت من
الغرفة بسرعة، لكنني لم أجدها!

بدأت أدور كالتائهة بين دورة المياه
وخارج الغرفة، وحتى غرفة أبوي.
كنت كالمجنونة أتنقل بين الأماكن
باحثة عن أختي، التي بدأ صوت
بكائها يرتفع قبل أن تبدأ بالصراخ
مستجدة، بصوت عرفت من خلاله
أنها تختنق!

أحدهم كان يضغط على عنقها بعنف،
مما جعلني أنهار بعد التظاهر
بالتماسك. كان المكان مظلمًا إلى حد
كان ثقيلًا على قلبي. كان الليل قد

تجاوز المنتصف بعدة ساعات، وكان
صوت أختي دليلي الوحيد، ينقلني من
مكان لآخر.

رأيت ضوءًا خافتًا وسط الظلام،
ذكرني بالمرآة اللعينة، فاندفعت
نحوه.

كانت أختي مرمية هناك، ينزف
عنقها بغزارة.

اندفعت نحوها بسرعة، واحتضنت
عنقها الغارق في الدماء بقلب متفطر.

كانت تحاول قول شيء ما، تشير
خلفي وتحرك شفتيها بما لم أستطع
فهمه.

وضعت أذني قرب فمها، فوجدتها
تقول:

- أدريان...

نظرت خلفي بسرعة، فلم أرَ شيئاً.
سألتها عما تحاول قوله، لكنها لم تكن
تنطق سوى اسم أخي!

نظرت مجدداً حيث تشير، ثم عدت
بنظري حين لم أرَ ما تراه، لأجدها
قد اختفت!

اختفت، لكن دماءها لا تزال تغطي
يديّ المخضبتيين.

فقدت الثقة في نظري، فوضعت يدي
على رأسي وبدأت أضغط عليه
لأعرف ما إن كان ما يحدث حقيقياً.

صوت صراخ أخي هو الآخر!

كان يقول برعب:

- الويز، ابتعدي! اهربي! اذهبي
بعيداً...

اعتصرت رأسي أكثر، محاولة طرد
صوته، لكنه لم يختفِ.

نهضت ثم ركضت باحثة عنه،
وارتطمت قدماي ببعضهما فوقعت
أرضاً باكية.

ظهر النور الخافت مجدداً، وعلى بُعد
أقدام رأيته!

حين رفعت نظري، كانت هناك،
واضعة سكيناً على عنق أخي، بينما
يصرخ بتلك الكلمات المحذرة لي.

توسلت إليها كي لا تؤذيه، لكنها
قطعت شرايين عنقه أمام عينيّ.
تناثرت دماؤه على الأرض، وأنا في
ذهول شلّت معه حركتي.

بقيت مكاني للحظات، قبل أن
أستوعب ما حدث وأبدأ بالزحف نحو
جثة أخي لأتأكد من موته.

وضعت أناملي المرتجفة على وجهه
أتحسسّه، ثم سمعت أحدهم يئن خلفي!

التفتُ، فإذا بأختي جثة هامدة.

ناوبت نظري بين جثتيهما، ثم
صرخت صرخة تردد صداها في كل
أنحاء القصر، متمنية انتهاء ذلك
الكابوس، رغم يقيني من أنني لم أنم!

حنيت رأسي، مجهشة في البكاء
لدقائق. وحين رفعتة، كان كل شيء
قد اختفى.

كنت جالسة على عتبة باب غرفتي،
ولم تكن أي جثة بالقرب مني، كما لو
كان كل ما حدث مجرد وهم!

نزلت من الدرج بسرعة، كما لو أن
جسمي يحرك نفسه. أسندت ظهري

إلى باب القصر، وحاولت اختراق
الظلام بعيني، باحثة عن أي أثر.

درت بنظري في الأرجاء بأقصى
قوة تركيز ملكتها وقتذاك، لكن لا
جدوى.

شعرت أن جدران القصر غدت
ضيقة عليّ، تثقل صدري، تمامًا
كتلك الغرفة المشؤومة.

خبطت الباب بعنف، أود الخروج
منه. شعرت أنني أفقد صوابي، ثم
حاولت تهدئة نفسي أكثر حين خطر
لي تفقد غرفة أختي لحسم الأمر.

أخذت شهيقًا طويلًا، واضعة يدي
على صدري، ثم زفرت محاولة طرد
كل ما حدث من ذاكرتي.

بقيت لدقائق في مكاني، أكرر الأمر
ذاته، وجسمي يأبى إلا أن يرتجف،
ثم أقنعت نفسي بما أراحتني:

«كل ما حدث لم يحدث، ولن
يحدث.»

ذهبت إلى غرفة أختي، فوجدتها
نائمة بسلام، ولم يمسسها أي مكروه.
تفقدت أخي، فوجدته بخير هو الآخر.

جلست مع كل منهما لفترة، تمنيت
معانقته فيها، لكنني لم أرد إيقاظه.

حدثتهما طويلاً، غير مصدقة أنهما لا
يزالان على قيد الحياة.

عدت إلى غرفتي، لا أفهم شيئاً مما
حصل ولا أستطيع استيعابه. لا
أصدق أن ما حدث، رغم شعوري به
وإيلامه لي، لم يكن سوى من نسج
خيالي.

قد يتوهم أحدهم شيئاً وقد ترعبه
الفكرة، لكن الأصعب من ذلك هو
شعوره بالأمر كما لو حدث!

لو لم أعش ما عشته، لجزمت أن هذه
الليلة كانت أسوأ ما مررت به.

بعد ما حدث ليلتها، قررت الانتقال
إلى قصري في هامبتونز. أردت

العيش بمفردي، فربما ذلك أفضل
لأخويّ وأكثر أمانًا لهما. ربما
وجودي معهما هو ما يعرضهما
للخطر.

كان من الصعب إقناعهما، لكنني
أقنعتهما في النهاية:

«أحتاج لقضاء بعض الوقت
بمفردي، وسأزوركما من وقت
لآخر.»

هكذا حاولت إقناعهما، ليوافقا على
مضض بعد نقاش طويل كاد يكون
عقيمًا، لو لم يقررا وضع راحتي
أولوية.

«لو كان ذلك ما يريحك، فلا بأس.»

هذا قولهما.

انتقلت بسرعة لأنفرد بمخاوفي
وأحتفظ بها لنفسي. سيكون ذلك أسهل
لو عشت بمفردي.

عرض عليّ أدريان العمل معه في
شركة أبويّ، لكنني رفضت. لم أكن
أغادر المنزل، مما دفعه لقول ذلك،
لكنني في الوقت ذاته لم أكن صالحة
للعمل. لم يكن الأمر ليمر بشكل جيد.

في المقابل، بدأت أختي تعمل معه،
مما شغلها وشتت تركيزها.

وجدت راحة من نوع ما في الأمر،
فربما انشغالها يسهل الأمر أكثر.

لازمت ذلك القصر، لا رغبة لي في
الخروج على الإطلاق، كما لو مات
شغف الحياة بداخلي.

حتى الدفء العائلي الذي حصلت
عليه بعد عودتي من المستشفى لم
يكن موجودًا. افتقدته، وكان انعدامه
صعبًا عليّ، غير أن ما رأيته في تلك
الليلة كان يعود في كل مرة ليؤكد
استحالة ما أفكر فيه.

تكررت الحادثة أكثر من مرة في
القصر حيث أعيش بمفردي، ورغم
يقيني أن ما يحدث ليس حقيقة، إلا أن
الشعور لا يزال بالمقدار ذاته، ولم
يختف ولو لمرة واحدة!

رؤية الأمر ذاته أكثر من مرة
استنزفتني.

لم أنم بعد، ولا أزال أتناول تلك
الأدوية. جسدي منهك، وملاميحي
شاحبة كالموت، وأصاب برجفة في
يديّ من وقت لآخر.

حالي تسوء يوماً بعد يوم.

في أحد الأيام، ضاقت جدران ذلك
القصر أيضاً عليّ، وحين أقول
«ضاقت عليّ» لا أقصدها بالمعنى
المنطقي، بل يعني الأمر أنني لم أعد
أستطيع التقاط أنفاسي في ذلك المكان
حرفياً!

ذهبت إلى الشرفة، حاولت التقاط
أنفاسي ناظرة إلى إطلالتي، لكن
اختناقني لم يخف.

خرجت من القصر، جلست في
سيارتي، وبدأت أقودها دون وجهة!

رأيت مكتبة على الطريق يلتصق بها
مقهى، فأوقفت سيارتي هناك.

بدأ اختناقني يخف، بل اختفى بعد
برهة.

شعرت برغبة في المطالعة. ترددت
للحظة، خشيت أن تسير الأمور
عكس ما أردت. لم أرد الوقوع في
مشاكل كنت في غنى عنها، لكن
جزءًا مني أفرحته رغبتي في زيارة

مكان ما، فأنا لم تكن لديّ رغبة في
الخروج منذ مدة طويلة.

كما بدت فكرة المكتبة مغرية لي. هي
أكثر مكان قد تروقني زيارته،
فالقراءة أصبحت أنيسي الوحيد.

حسنت أمري واتجهت نحو المكتبة.

بدا شكلها غريبًا بشكل لم أفهمه.
انتقيت كتابًا بدا مترجمًا، لكنه ملفت.
كان له علاقة بالكون والتحدث عنه.
ترددت قبل أخذه، لكنه جذبني بشكل
غريب.

ذهبت إلى المقهى. المكان شبه خالٍ،
به ما يقارب خمسة أشخاص فقط.
انتقيت أحد الكراسي وجلست عليه.

أراحتني قلة من حولي.

أتمنى أن يمر اليوم دون مشاكل.

بدأت تصفح الكتاب. كان يدور حول
ما لم أقرأ عنه يوماً. ربما كان ذلك
سر غرابته. كان له تأثير قوي عليّ
وغريب في آن، يولّد في ذهني أسئلة
لم أفكر فيها قط.

كأنه يود قول شيء ما.

كأنه يخبرني بوجود من يدير هذا
الكون ويتحكم به.

انهمكت في القراءة، أفكر في كل
كلمة، وأتمعن في كل سؤال.

أنهيته بسرعة غريبة، وشعورًا أشد
غرابة ينتابني. غير نظرتي للكون
بأسره في وقت قصير، كما لو أراني
كل شيء من منظور مختلف.

أردت المزيد.

أردت قراءة كتب مماثلة.

رفعت رأسي، ليتغير كل شيء في
تلك اللحظة.

ما إن وقعت عيناى على تلك العيون
حتى تحول كل ما كان يملأ رأسي
إلى سراب!

تلاشت أحداث الماضي من ذاكرتي
كما لو وُلدت للتو!

الغريب أنني كنت قد رأيت تلك
العيون من قبل.

رأيتها أكثر من مرة في أكثر من
كابوس.

عيون شخص أنقذني أكثر من مرة،
أخرجني من الكثير من الكوابيس
وأنقذني من وحوشها.

كيف ذلك؟!!

كانت زرقاوين، كأنهما تحملان لي
حياة جديدة بداخلهما.

لا أعرف كيف أصف ذلك الشعور،
لكنه كان أشبه بأن يغادر عقلك
رأسك، ويعطي حكم جسدك لذلك

القلب النابض يسار صدرك ليتفرد
به.

توقف كل شيء من حولي، أو ربما
فقدت الشعور به.

بدا الكون فارغاً سوى من تلك
العينين الزرقاوين اللتين أسرتاني مذ
وقعت عيناى عليهما.

سرحت فيهما دون وعي.

كانتا كالسماء الصافية التي تفرض
جمالها عليّ.

غرق فيهما كبحر لم أرد النجاة منه!

بل أردت الغرق والتوغل لأتعمق
أكثر.

لم أرد أن ينتشلني أحد أو شيء.

لكنه فعل...

ارتطمت بأحد الكراسي وأنا أتجه
نحوه دون وعي. كان قاموسي
يرفض أي منطق قد يعارض تلك
الرغبة التي كانت تسيطر عليّ.

استعدت وعيي حين وقعت إثر
الارتطام. جميع الموجودين كانوا
ينظرون إليّ، أو هكذا شعرت.

نظرت إلى الباب بحثًا عنه، لم يعد
هناك. كان قد جلس على أحد
الكراسي، على بُعد متر مني.

بدأت أتمعن فيه أكثر، بعد أن لم أكن
أرى سوى عينيّه:

شاب ذو قامة طويلة، بشعر فاحم ذي
خصلات متمرّدة، وعينين جميلتين
لهما عدستان زرقاوان أسرتان. ذبت
فيهما كقطعة سكر في كوب قهوة،
وبشرة ناصعة كالبياض، كالثلج الذي
أثلج قلبي المشتعل ورأسي الموشك
على الانفجار.

تفرست في كل تفاصيله. سؤال واحد
سيطر عليّ، كان ملحاً ويود جواباً لم
يجده:

ما الذي فعلته تلك الزرقاوان بقلبي؟

تمتت به لنفسي، لكن لم تكن له
إجابة، فما حدث كان فوق أي تفسير
تحريك الحروف لوصفه.

كان يشدني نحوه عنوة. مهما مر
الوقت، لم أكتف من التحديق به!

أثناء تأملي للجالس أمامي، جاءت
تلك الصفعة القوية، لا أدري من أين.
لم أميز إن كانت حقيقة أم خيالاً، لكن
شعوري بها كان فوق أي حقيقة.
كانت كافية لإيقاظي!

بدأت أسمع صرخات مدوية ألفت
سماعها، لكنها لم تخفت. سببت لي
أكثر من مرة ما هو أشبه بنوبة هلع،
لكن لا يزال لها التأثير ذاته.

تبدو كصراخ من هو بأشدّ آلامه.

كانت صرخات أخويّ، وفي لحظة
كان المكان قد تحول إلى كومة
نيران، تتآكل أجسادهما أمام عينيّ.

أنا متأكدة أنني لا أزال في المقهى،
ولا شيء مما يحدث واقع، لكنني في
الواقع كنت أشعر بذلك المشهد، بكل
تفصيلة فيه، بكل حرق تسببه تلك
النيران لجسدي أخويّ، وبكل صرخة
لهما.

تحول الصراخ إلى طنين كاد يفجر
طبلة أذنيّ. أغمضت عينيّ، وعمق
قلبي المحترق يتمنى اختفاء ذلك
المشهد، لكنه بقي مخيمًا في رأسي.

ضغطت يديّ بقوة على أذنيّ، علّ
الصوت يخفت، لكنه لم يفعل!

تبّا، ما أنا فيه أبعد ما يكون عن
العشق ولذته.

شعرت بالأرض تدور من حولي
حتى شعرت بالغثيان. حاولت فتح
عينيّ ببطء، فنظرت بعين نصف
مفتوحة، فرأيت ذا الزرقاوين يحدق
بي بقلق.

ثم صار أقرب، صار قريبًا مني كما
لو أنه يحاول مساعدتي بطريقة ما.
كان يتفحصني بينما يحرك شفثيه بما
كان أشبه بـ:

«آنسة، هل أنت بخير؟»

كانت ملامحه مشوهة برؤيتي
الضبابية، كما بدا صوته كالهمس.

شعرت بثقل أنفاسي وبضيق شديد في
صدري. أختنق بينما يعلو صدري
ويهبط بشكل مقلق.

بحثت عن الـOxygen فلم أجده.

درت بعينيّ الزائغتين في المكان،
فإذا بقلة الزائرين للمقهى قد أحاطوا
بي.

تحركت بخطوات مترنحة، أشق
طريقي للخروج. أبدو اهتمامًا بالغًا،
لكنني تجاهلت ذلك.

تظاهرت بالتحسن، مجلدةً نفسي بقوة
زائفة. وصلت إلى سيارتي بسرعة،
وضعت سرعة جنونية وانطلقت كمن
يود الطيران.

كنت أوشك على فقد السيطرة على
السيارة من وقت لآخر إثر الغثيان،
لكني واصلت القيادة حتى ابتعدت
عن المكان بأميال كثيرة.

توقفت!

أوقفت السيارة، وخرجت منها
بسرعة باحثة عن ذرة هواء تعيد
الحياة لرئتي.

كنت قد وصلت إلى الشاطئ القريب
من قصري. اعتليت يختي الموجود

هناك، والذي قضيت فيه الكثير من
الأوقات المشابهة لهذه.

كانت نسماته تعيد إليّ أنفاسي بعد
اختناقي المتكرر. بدأت ألتقط أنفاسي،
كما بدأ الصراخ يبتعد حتى تلاشى
صوته مع ذلك المشهد المروع.

شهقت بعمق، ثم زفرت مطولاً أكثر
من مرة. كررت ذلك التمرين،
محاولة طرد كل ما حدث من رأسي
«المريض».

بقيت في ذلك اليخت لفترة حتى
تحسنت، ثم عدت إلى القصر ودلفت
إلى غرفتي على الفور.

كنت منهكة عن آخري، يقتلني
النحاس من نفسي عنوة.

أمعنت النظر في السرير، متأملة ما
حُرمت منه.

بحثت عن الأقراص المانعة للنوم،
تمنعني من النوم حين أعجز عن منع
نفسي، وهذا ما يحدث الآن.

بحثت في كل الأدراج، لكن لم أجد
سوى علب فارغة. بحثت أكثر، فلم
أعثر على شيء.

بدأت يداي ترتجفان، مع رعدة
تسري في سائر جسدي.

نوبة جديدة أصبت بها.

ذهبت إلى مكان الكتب في غرفتي،
حاولت القراءة، لكنني كنت فاقدة
للتركيز، ولم أكن أرى الحروف
بشكل واضح.

أخذت الدفتر والقلم، ناوية الكتابة،
لكن يدي المرتجفة لم تستطع.

وقفت في منتصف الغرفة بعجز،
أنظر إلى كل الأمور التي كنت
أستنجد بها عادة، وكيف عجزت عن
مساعدي اليوم.

الأقراص، الكتب، الدفتر...

بدأت الأرض تدور بي مجددًا، كأني
سأفقد وعيي، لكنني لم أكن لأسمح
بذلك.

تذكرت ما رأيته تلك الليلة في
القصر. خفت أن يصير حقيقة.

عدت بذاكرتي لكل من خسرت سابقاً،
وأرعبتني فكرة أن يكون لأخوي
المال ذاته.

كان تفكيري مضطرباً وقتها. أردت
التفكير في أمر مختلف.

أغمضت عيني، فظهرت صورة ذا
الزرقاوين.

تباً!

أنا أدخل شخصاً جديداً في دوامتي،
في دائرة الخطر خاصتي.

رأسي يضج بصور وأصوات غير
واضحة، لكنني عرفتھا، حفظتها عن
ظهر قلب.

الصراخ ذاته، النيران ذاتها، وفي
المنتصف كانت الزرقاوان اللتان
أفقدتاني عقلي.

كل هذا يُفقدني عقلي بشكل تدريجي.

كل ما أردته وقتها «عقل فارغ
وحسب».

لا أريد رؤية شيء أو سماعه.

هذا ما فكرت فيه بينما أضرب رأسي
بعنف، محاولة طرد كل ما تراكم
بداخله. لم أكن أشعر بذلك.

صرخت بأعلى صوتي، ثم بكيت!

بكيت كل من خسرت، بكيت عجزي
وضياعي، بكيت طريقي اللامعقولة
لإنقاذ أخويّ، نضالي اللامنطقي.

بكيت كل ذلك حتى تعبت.

وقعت عيناى على أصبعي، على ذلك
الوشم اللعين المحيط به.

تذكرت كونه السبب في كل شيء.

بخطوات مترنحة خرجت من الغرفة،
باحثة عما يخلصني منه.

في البرهة، على السفرة، ووسط
الفواكه على وجه التحديد، رأيت ذلك
السكين وأخذته دون تفكير.

بالخطوات المترنحة ذاتها عدت
لغرفتي، حاملةً إياه، وفي لحظة كنت
فيها فاقدة وعيي بالكامل...

قمت بسلخ إصبعي، سلخته حتى
اختفى ذلك الوشم.

لم أكن أشعر بالألم، ولا بمدى جنون
ما فعلت.

كل ما شعرت به هو الراحة لتخلصي
من الوشم، ومن الخاتم معه، ومن
ذلك الكابوس اللعين.

لقد انتهى أخيرًا!

بعد نزيف لم ينقطع لفترة، فقدت
وعيي...

كنت على جسر خشبي في ظلام
دامس.

صوت خرير مياه يبدو قريبًا. لم أكن
أرى سوى الظلام، فلم أعرف أين أنا
بالضبط.

تحسست طرفي الجسر فتعرفت
عليه.

أصوات متداخلة تبدو بعيدة، لكنني
سمعتها وتعرفت على أصحابها...

من جهة، صوت طفلة:

- سيدة المعطف، يمكنني مناداتك
بذلك، صحيح؟

ومن الجهة الأخرى، صوت رجولي
مع آخر أنثوي:

- أهلاً بمعشوقتي، لقد اشتقت لك
كثيراً، حبيبتي ألسا...

- أنا كذلك يا جاك، كل ذلك بسبب
البلهاء الويز...

ثم تداخلت أصوات كثيرة من شتى
الجهات:

- أيما، أتذكرين يوم صدتنا في
الجامعة؟

- أتوق ليوم تنقلب فيه الأدوار...

- لا تلقي بالاً، أوشكنا على تحقيق
ذلك...

- انتظري يا غليتر، وسترين كيف
سينحني رأسها المرفوع ذاك...

- هلا جعلتموني من يتولى صفعها
بالحقيقة؟

- أنا أيضًا أتوق لذلك...

- لا بد أن الأمر ممتع، أليس كذلك يا
ديفد؟

- أجل يا فرايدي، لكن أفضل أن
يكون الأمر جماعيًا، بعد إخبارها
بخيانة جاك...

ثم امتزجت تلك الأصوات بضحكات
عالية، بدت للأشخاص أنفسهم.

ثم من الأمام سمعت ذلك الصوت
الذي شدني إليه:

- أتدريين يا أنجولي، أفكر في
الاعتذار لابنتنا فور استيقاظها. لم
أكن لها أبًا جيدًا قط...

- لست وحدك المخطئ يا جون، لم
يكن أيُّ منا يتقن دور الأبوين.
انشغلنا في العمل أكثر، وأهملنا
ابنتنا...

- معك حق، علينا تغيير ذلك حين
تستعيد وعيها...

- سنعوذها عن كل ما فقدته من
الحنان...

من بين كل الأصوات التي سمعتها،
لم أكن أود رؤية أي من أصحابها،
لكن الآن، أود رؤية أبويّ بشدة.

شعرت بهما ينتظرانني خلف تلك
العتمة.

ركضت خلف صوتهما.

بعد ركض طويل، فوجئت بانتهاء
الجسر.

توقف، منتهياً كما لو لم يكن جسراً
منذ البداية!

كان كالمنحدر. كنت واقفة على
ارتفاع شاهق، كدت أقع في تلك

الهاوية العميقة المظلمة التي أُرعبتني
بمجرد النظر إليها.

عادت الأصوات مجددًا، عادت
مرتفعة من خلفي. كانت مزعجة،
أفقدتني تركيزي.

سدت أذنيَّ وهزرت رأسي محاولة
طردها.

كانت ترتفع أكثر فأكثر، حتى
اضطربت خطواتي إلى الخلف،
وفقدت توازني ووقعت.

وقعت أرضًا بعد فترة هبوط طويلة،
صاحبتها صرخة ارتعاب...

ارتطمت بسطح قاسٍ كاد يحطم
رأسي وكل عظمة في جسدي. شُلَّ
جسدي، فلم أستطع النهوض.

ضغطت على رأسي الذي أصيب
بصداع رهيب.

وقفت بعد محاولات كثيرة، وسرت
بخطوات مترنحة.

كان المكان مظلمًا بالشكل ذاته، لكن
بدأت ألحظ كون الغيوم السوداء سبب
عتمته.

كانت السماء متلبدة بتلك الغيوم،
منذرة باقتراب هطول المطر.

صعقات البرق كانت تنير المكان من
وقت لآخر، قبل أن تختفي حين
أوصلني سيري إلى ممر ضيق دخلته
دون تفكير.

شممت رائحة عفن تفوح في المكان.
أغلقت أنفي بأصابعي، وواصلت
السير داخل ذلك الممر...

كنت حذرة في خطواتي، أتوقع
حدوث أي شيء مثير للفرع. الطابع
المخيف الذي غلف المكان كان يقول
ذلك.

بعد خطوات عدة، ارتطمت بشيء لم
أعرف عنه سوى أن رائحة العفن
تفاقت حين اقتربت منه.

وزادت أكثر حين وقعت عليه.

أدركت أنها تفوح منه. حاولت
النهوض والابتعاد عنه، لكنني جفلت
حين شعرت بلمسة يد!

يد جثة متعفنة!

نهضت فور ملامستها. أردت الابتعاد
عن المكان في أسرع وقت، لكن كلما
وقفت ارتطمت بشيء آخر أعادني
إلى مكاني.

ربما أنا وسط كومة جثث!

كانت رائحة العفن قوية تخنق
أنفاسي، بينما حبسها ارتعابي مما أنا
فيه.

حين حاولت النهوض مجددًا، وقع
شيء ثقيل فوق ليثبتني مكاني.

لا أدري بم شعرت وقتها، لكنه كان
قاسيًا.

كنت أفقد عقلي، أنفاسي، وحتى
نبضات قلبي.

ربما هذا ما كنت عليه.

حاولت دفع ذلك الشيء وإبعاده عني،
لكنني لم أستطع. شعرت بالضييق
والاختناق والعجز، وأشياء أخرى
أثقلت صدري، لم أستطع تمييزها أو
وصفها.

بدأت ألحظ فجوة في ذلك الشيء.
بدت كالمسافة بين المنكب والعنق.

لا أدري ما الذي سيحدث لي إن كان
ما أفكر فيه صحيحًا.

استرقت النظر من خلف الفجوة،
فرايت الممر لا سقف له!

لا أدري إن كنت خرجت منه، أم أن
هذا الجزء منه لا شيء يسقفه.

أنا متأكدة أن سقفه هو ما حجب
البرق حين دخلت!

لا أعلم كيف، ولكن شددت قبضة
يديّ، محاولة إبعاد ذلك الشيء بكل
قوتي، حتى تمكنت من ذلك.

جلست وسط تلك الكومة، وحاولت
تحسس ما تألفت منه لأتأكد.

ثم، بعد لحظة، حدث ما أشعروني بما
يتخطى الرعب والفرع بمراحل
كثيرة...

أضيء المكان فجأة!

لا من برق ولا من قمر، كما لو لم
يعتم البتة، لأصعق بما رأيت...

كانت كومة جثث نصف متحللة
بالفعل.

لكن الصاعقة لم تكن هنا، بل في
أصحابها!

وضعت يدي على فمي صدمةً مما
وقعت عيناى عليه، لم تكن جثةً
متضحة الملامح، لكنني عرفت أنها
لأبى!!

شهقت حين تعرفت إليه، لم أكن
وقتها أشعر بالعفن الذي ملأ المكان،
بل كتمت أنفاسى حين شعرت برغبة
فى البكاء.

حاولت الهرب من ذلك المنظر،
فأشحت بنظري عنه، لكننى
اصطدمت بجثة أمى، فى حالة أشد
قسوة.

كانت ملامحها تنهش بداخلى، عاد
كل ما شعرت به وقت معرفتى

بموتهما، كما لو كان ذلك يحدث في
تلك اللحظة!

كانت عيناها جاحظتين، لا لمعان
فيهما ينبض بالحياة، حدقتاهما
مفقوءتان كما لو نكشهما طائر
بمنقاره، وفكاهما مفتوحان بشكل
مخيف؛ لم يكونا كالهيكل العظمي،
ولا كالجثة المتماسكة، بل شيئاً آخر
في منتصف أشد إثارة للرعب.

لم أكن أود إطالة النظر إلى شكلهما
ذاك، لكنني في الوقت ذاته كنت
مشتاقة لرؤيتهما.

مددت يدي المرتجفة نحوهما
وتحسست ملامحهما بأطراف أناملي.

بعد فترة، بدأت أمعن النظر في
أصحاب كل جثة:

جاك، دايفيد، فرايدي، ألسا، أيما،
غليتر، والأسوأ من كل ذلك كان
رؤيتي لجثة فلورا!

كانت جثث الجميع مشوهة، وموتهم
جميعًا بشعًا، لكن جثتها كانت الأسوأ.

كانت صغيرةً بريئة حين عرفتُها،
لكنها الآن لا ملامح لها، شوّهت
بالكامل. غادرت الحياة عينيها،
وانقلبت ابتسامتها حين انسلخ فكها.
كان التحول الذي أحدثه موتها مرعبًا
أكثر من الآخرين، لكن ذلك لم يخفف
شعوري نحوهم.

لم أدر إن كان عليّ الحقد على
الخونة، أم الشفقة عليهم، أم الحزن
على من أحببتهم.

لكن استيائي مما حدث للجميع كان
أكيدًا. لا أصدق أن لكل منهم علاقة
بي، لكل منهم ذكرى جميلة معي.
اقتربت منهم فردًا فردًا، وعدت
بذاكرتي إلى كل ما جمعني بهم.

عاد شعوري بالعفن مجددًا، لكنه كان
يفوح مني هذه المرة.

بقيت في ذلك المكان طويلاً قبل
سماعي لذلك النداء.

لا أعرف من أين، ولا ممن، لكنني
نهضت بعد سماعه ولحقت به. تلفتُ

يمينا ويسارًا باحثة عن مصدره،
وابتعدت بصعوبة عن مكان الجثث،
كانت قدماي بالكاد تحملانني. ألتفت
من وقت لآخر باحثة عن مصدر
الصوت، ثم أوصل العدو.

كان النداء باسمي، مما جعلني ألحقه
دون تفكير.

وقعت عيناى على ظل شخصين على
بعد مني، كان المكان مضاءً عدا
مكان وقوفهما، تحيطهما عتمة
غريبة. خطوت بحذر نحوهما،
وببطء بدأت ملامحهما تتضح لي...

كانا أخواي، سعيدين برؤيتي، فاتحين
ذراعيهما لي. كانا مبتسمين، يحتانني
على الركض نحوهما ومعانقتهما.

لكن هاجس كون وجودهما ليس
حقيقياً سيطر عليّ، فلم أتحرك من
مكاني.

بقيت واقفةً أنظر إليهما بشك.

من الجهة المعاكسة، سمعت صوتاً
منادياً باسمي.

نظرت خلفي، فإذا بتلك العجوز على
البُعد ذاته، وبجانبها شاب بملامح
قريبة من ملامحها. ربما كان
حفيدها، أو من المؤكد أنه هو، فقد
رأيتَه من قبل.

لكن ما كان غريباً هو صوتهما؛ كان
كصوت أخويّ!

العجوز بصوت أختي، وحفيدها
بصوت أخي، كانا يصرخان بي أن
أركض نحوهما قبل أن يمسنني
مكروه:

- تعالي أختي، لا تسمح لي لهما
بخداك، أنت تعرفين أختك جيدًا،
أليس كذلك؟

- ستجدين الأمان في حضنها ككل
مرة، تعالي، فلا وقت للتفكير...

ناوبت نظري بين الجهتين في حيرة.

نظرت إلى عيني أختي في الجهة
الأخرى، كان حب أختي الذي ألفته
يشع من عينيها بمشاعر صادقة. كان
أخي ينظر إليّ بحنان واضح امتزج

بقلقه عليّ، كان الحب جليًا في
عينيّهما، وقد استطعت الشعور به.

عدت بنظري إلى العجوز وحفيدها.
عيناها خاليتان من أي مشاعر
أعرفها، حاولت اختراقهما بحثًا عن
أي ذرة حب، لكنني لم أعرّ عليها.
لم أشعر بأي شيء، لم يكونا يملكان
سوى ذلك الصوت وتلك الكلمات
التي لم تعن لي شيئًا، ولم أشعر
بصدقها.

قررت الاستماع إلى قلبي.

حسنت أمري واتجهت نحو أخواي
الحقيقيين.

ما إن خطوت خطوتين نحوهما حتى
بدأ الصراخ من خلفي؛ صراخ
العجوز وحفيدها، وهما يهددانني،
مما جعلني متأكدة من صحة
اختياري.

واصلت ركضي نحو أخواي، لكن
الغريب أنني كلما ركضت نحوهما،
ابتعدا عني أكثر.

كأن قدميَّ مقيدتان رغم تحررهما.

شعرت بدفء يقترب مني بعد فترة،
فالتفتُ خلفي لأجد العجوز وحفيدها
مبتسمين، وعيناها تقدحان شرًّا.

كانت كومة من النيران منطلقة نحوي
بسرعة جنونية، كنت على يقين أنني

مهما ركضت فلن أنجو منها، لكنني
لم أخطُ بضع خطوات مبتعدة حتى
بدّلت وجهتها إلى الاتجاه المعاكس
وسط ذهولي!

سرعان ما انقلبت ملامح العجوز
وحفيدها من الابتسامة إلى شيء آخر
مفزع؛ كان الرعب جليًا على صفحة
وجهيهما، ثم التهمتتهما النيران بعد
صرخة مدوية أطلقاها، جعلتني
أرتعد، قبل أن ألتفت إلى أخواي
وأسرع في الركض نحوهما.

كان ركضي لا يزال يزيدهما بُعدًا،
لكنني توقفت حين تغيّر المكان!

حين تحوّل جسد العجوز وحفيدها
إلى رماد طيّرته تيارات رياح باردة،

تحوّل المكان إلى آخر منارٍ بشكل
جميل، واختفى العفن الذي كان
ملتصقاً بي.

لُفحت بنسماتٍ أشعرتني بانتشاء
غريب، وأحاطني سلام حثني على
إكمال السير نحو أخوأي، وكنت
أقترب منهما هذه المرة.

عانقتهما بقوة، مغمضةً عينيّ،
فتلاشياً ليحل الظلام والفراغ
مكانهما!

فتحت عينيّ...

فوجدتني في غرفة طبية!!

فتحت عينيّ ببطء، أشم رائحة معقم،
وأسمع صوت ذلك الجهاز أو عدة
أجهزة.

شعرت بصداع رهيب، وضعت يدي
على رأسي وحاولت النهوض، لكن
جسمي كان ثقيلًا فلم أستطع حمله،
قلت أثناء محاولتي للنهوض: - كيف
وصلت إلى هنا؟

أنت الإجابة من يسار سريري: -
ارتاحي قليلاً وسأخبرك... أظننتني
سأتركك لو أوهمتني أنك بخير؟!!

تفاجأت بكون أختي المتحدثة، عقدت
حاجبيّ بعدم فهم قائلة: - أختي؟! -
نعم، أختك، وكان عليك أن تعلمي

جيداً أن أختك لن تتركك أبداً. - لكن
ك... كيف؟

درت بنظري في الغرفة لأتأكد ما إن
كانت غرفة طبية بالفعل، ثم عدت به
إليها منتظرة إجابة...

- في الحقيقة، بعد إصرارك على
الابتعاد عنا والانتقال إلى هامبتن،
وخاصة بعد قطعك الاتصال معي
ومع أخيك، بدأت أشك فيما أخبرتني
به. خفت أن تكوني قد تظاهرتِ بأنك
بخير حتى لا أقلق عليك.

كانت تلك الشكوك تزداد يوماً بعد
يوم، فأمرت أحدهم بمراقبتك. كان
يعلمني بكل ما يحدث معك مذ

انتقلت، لكنني لم أتوقع أبداً أن تفعلني
ما فعلته...

قالت كلمتها الأخيرة مشيرة إلى يدي.
نظرت حيث أشارت، فوجدت الشاش
ملتفاً حول إصبعي. تذكرت ما قمت
به قبل فقدانني للوعي، عدت بنظري
إليها، فقالت بملامح أكثر حدة،
محاولة إخفاء مرونة طبعها:

- الويز!

الأمر يزداد سوءاً أكثر فأكثر، لم يعد
متوقفاً على كوابيس ترعبك ولا
مخاوف تعيق تعرفك على أناس
جدد، بل أصبح شيئاً آخر أكبر، شيئاً
يقودك نحو الهلاك!

فحوصاتك أظهرت جرعات دواء
كبيرة في جسدك، لقد أدمنتها!

أدمنتها حتى كادت تنهي حياتك
ببطء، ناهيك عن إقلاعك عن النوم
لفترة ليست يسيرة البتة، حتى غذاءك
أهملته، وبعد كل هذا، تقومين بسلخ
جلدك؟!!

ماذا تظنين نفسك فاعلة؟!!

لو لم يصلني خبر بما فعلته، ما الذي
كان سيحصل؟

كيف لك أن تنجي بحياتك بعد أن
تسببت بموتك من جوانب عدة؟

تدفعين نفسك نحو الهاوية في كل
مرة!

كنت ممعنة النظر في عينيها، منصتة
لكل كلمة تتفوه بها. لا أدري ما إن
كان عليّ أن أسرّ من كون أحدهم قلقاً
عليّ، أم تقلّني معرفة أختي لكل ما
قمت به.

لم تكن لديّ إجابات على ما سألتني
عنه، ولم يكن بإمكانني إخبارها
بتفاصيل ما يحدث معي. لم أكن أود
أن تقلق عليّ أكثر، لم أدر وقتها ما
كان عليّ قوله. قلت بضياح متلعثمة:

- أنا... أنا...

- أنت ماذا؟

أنت ماذا يا الويز؟

أنت بشر ككل البشر، لك طاقة
محدودة لا يمكنها تحمل كل هذا.

معالجتك لن تكون في إخفاك لحقيقة
ما تشعرين به، ولا في تهربك من
العلاج النفسي.

أنت تدفعين جسدك للانهيـار بما
تقومين به، بإهمال صحتك،
وبالطريقة ذاتها ستدمرين قلبك،
بإهمال مشاعرك!

تكتمينها كما لو أن ذلك لا يؤذيـه!

لا يمكن لأي شخص تحمل هذا
بمفرده، وأنت لست مطالبة بأن
تكوني غير ذلك.

أنت إنسان: يضعف، يخاف، يتألم
ويمر بحالات لا يمكنه تخطيها
بمفرده.

إن كنت تظنين ما تفعلينه قوة أو
صموداً، فاعلمي أنه لم يكن سوى
انتحار ببطء، وهذا من أقسى أنواع
الانتحار. أنت تقتلين روحك قبل قتل
جسدك، هذا ما يسمى انتحاراً يا
الوزير!

وأنا لن أسمح لك به، لا بهذا النوع
منه ولا بأي نوع آخر.

كنت منصتة لما تقول بقلب متفطر ،
لا أزال عاجزة عن إخبارها، لكن
إصرارها ونصائحها ووصفها لما
أفعله، كل هذا جعل غصة تتمرکز
وسط حنجرتي. شعرت أنني إن
نطقت فستهطل دموعي على الفور،
كاشفة ما أردت إخفاءه.

بقيت صامتة وحدث بنظري عنها،
خشيت أن تكشف ما استوطن عيني،
فلم أعلق على ما قالتة.

- الويز، لا تتحاشي النظر إليّ، التفتي
إليّ. أعتقد أنك مدينة لي بتفسير لما
قمت به، متأكدة أن لك أسباباً
وتبريرات، فلم لا تخبريني بها؟
- اتركيني بمفردي فحسب.

قلت مستجمعة قواي محاولة
التماسك.

- ماذا؟

قلت منفعة:

- قلت اتركيني بمفردي، لقد سئمت
التصاقك بي طيلة الوقت. أنا لم أعد
طفلة تحتاج إلى حضنك كي تتغلب
على مخاوفها وتخلد إلى النوم، لقد
كبرت ومللت منك، أصبح وجودك
يخنقني.

لم أعد أطيقك، فقط ابتعدي عني،
ابتعدي عني فحسب، اتركيني
بمفردي.

قلت الأخيرة ناظرة إليها بحدة،
متجاهلة نظراتها التي بدأت تلين
وتحنو. استعادت عاطفتها التي كانت
تحاول إخفاءها.

أختي حنونة بطبعها، وتعاملها معي
ذو طابع خاص يفوق حنانها، لكن
رؤيتها للأذى الذي تعرضت له
أغضبها. حاولت التحدث معي
بصرامة، أرادت إعلامي بجدية
الأمر.

لكن ذلك لم يكن ليخفف عني، ما
أعيشه جحيم حقيقي يجعلني أختار.

أعليّ مواجتهته؟ هل سأقوى على ذلك
بمفردي؟

أعليّ الابتعاد عن كل من قد يتأثر
بذلك الجحيم بسببي؟

رغم أنني أعرف أن أختي لن
تتركني بسهولة، لكن كان عليّ
إبعادها بأي طريقة.

حين أنهيت كلامي رسمت على
وجهي ملامح متجمدة، متظاهرة
بتجاهل ما ستحدثه كلماتي في قلبها
من جروح.

شبكت سواعدي وأشحت بوجهي
للاتجاه المعاكس.

تمسكت بموقفي منتظرة رحيلها.

مرت لحظات صمت بيننا، لا أزال
أنتظر رحيلها، لكنني تفاجأت حين
عانقتني!

- لا بد أن ما تحملينه في قلبك همّاً
ثقيلاً جعلك تقولين ما قلته.

لكن دعيني أخبرك أن ما قلته لا
يعني لي شيئاً، يستحيل أن أصدقه. أنا
معك مهما طلبت مني الابتعاد.

سأبقى بالقرب منك لنتشارك ما
تشعرين به سوياً، حتى لو لم أكن
أعرفه!

كنت بحاجة إلى ذلك الحزن بحق،
لكنني تظاهرت بالعكس.

حاولت دفعها بعيداً عني، لكنها لم
تبتعد!

قلت سرّاً: لماذا تصعبين الأمر عليّ؟
لم لا تتركيني لأنجو بحياتك؟ لم
تصرين على التعرض لما أصاب
البقية؟

بعد عدة محاولات لإبعادها استسلمت
للأمر الواقع!

سيطرت مشاعري عليّ، لم أعد
أستطيع التماسك أكثر. كنت كلما
أردت إبعادها تشبّثت بي أكثر، وفي
النهاية أنا من تشبّث بها!

أجهشت في البكاء، انهرت باكية وأنا
أقول لها من بين شهقاتي:

أختي... أنا... أنا... أتسبب بموت كل
من يقترب مني!

واصلت بكائي، لا تزال أختي متشبثة
بي تحاول مواساتي.

توقفت عن البكاء بعد فترة طويلة، ثم
بدأت أخبرها بكل ما حدث منذ
رحلتي بعد حفل التخرج. واصلت
إخبارها بكل شيء، أعود إلى البكاء
من وقت لآخر حين أصل لحدث
ألمني أكثر، أخبرتها بكل التفاصيل.

فكت عناقي وأمسكت يدي، صارت
تضغط عليها من وقت لآخر بلطف
تحتني على مواصلة الحديث.

كأنها تذكرني أنها معي مهما حدث،
أستمد الشجاعة من ذلك لأواصل.

وصلت لقصة سلخ الوشم دون
إخبارها عن ذا الزرقاوين.

بعد انتهائي حاولت مواساتي بكلماتها
الحنونة المعتادة:

- لقد قاسيت الكثير، حبيبتي. من
يتعرض للفقد والخذلان في أن لا بد
أن يتفطر قلبه، أو يفقد عقله، أو
كليهما...

جلست معي على السرير حين
أفسحت لها مكاناً بالقرب مني،
احتضنت وجهي بين كفيها لتلتقي

عينانا، ثم قالت وقد تحدثت عيناها
قبلها:

- أتذكرين ما قلته لك في المستشفى
المرة الماضية؟

أومأت إيجاباً، فأكملت:

- لقد عنيت ما قلته وقتذاك، لن أتركك
بمفردك، سنتخطى هذا الألم معاً،
سنتشارك ليخف، اتفقنا؟

أومأت إيجاباً مجدداً ثم عانقتها،
وشعوراً بالراحة زار قلبي بعد أن
هجره طويلاً.

تحدثنا كثيراً، بحنو أعاد الاطمئنان
لقلبي ولو للحظة.

- ألم يخطر على بالك يوماً أن كل ما تفكرين به قد يكون من نسج خيالك؟

- أنا أيضاً تمنيت أن يكون ما قلته صحيحاً ولكن...

قاطعتني قائلة:

- فقط انظري إلى الأمر بذلك المنظور للحظة: حادث أبويننا كان مجرد حادث، أصدقاؤك كان افتراس الوحوش لهم هو سبب موتهم، وحتى فلورا عُثر على القاتل المتسلسل الذي سبب موتها فيما بعد.

ألا يمكن أن يكون كل هذا لا علاقة له بك؟

- لكني رأيت مصير كل واحد منهم
قبل حدوثه، والعجوز...

- بعض الأشخاص يرون في أحلامهم
ما يصبح حقيقة بعد حين، ذلك لا
يعني أنهم مسؤولون عنه.

بعد ما قالتها خفت ألا تكون قد
صدقني، ألقيت عليها نظرة شك،
فأجابت:

- ليست المسألة أنني لا أصدقك. أنا
وإن قلت إن ما يحدث مجرد خيال،
وليس حقيقة، لكني مصدقة، وعلى
يقين أنك تشعرين به، يؤلمك
وتعيشينه أياً كان، ويؤثر عليك سلباً،
ألا يكفيك تصديقي لذلك؟

أومأت إجابة مع ابتسامة رضى،
فاستطردت:

- لاحظت أنك فقدت ثقتك في علاقتنا،
أيصل بك الأمر إلى أن تقولي
اتركيني؟

ثم أكملت بمزاح:

- من يسمع كلامك هذا لن يصدق
أنني أختك، بل سيظنك تنفصلين عن
حبيبك...

ضحكت ضحكة خافتة قصيرة.

- ماذا كنت لتقولي لو قلت لك: عودي
إلى حبيبك ماكمهون، تزوجيه وانسي
أمري؟

قالت ضاحكة:

- وقتها ستكون علاقتنا معقدة.

ضحكنا معاً بركة. لقد كنت أتصنع الضحك منذ زمن طويل، لا أدري متى آخر مرة ضحكت بحق، لكني لا أنكر أنني ضحكت لحظتها من قلبي.

قالت أختي متأملة لي بعد أن خفت ضحكنا:

- أنا أقدم الأخوة بحق!

أكملت موضحة:

- في كل من الحب والصداقة تنتهي العلاقة بالانفصال حين يخطئ أحد الطرفين أو يخون، أما في الأخوة فما

إن يكون فيها حب صادق وثقة قوية
حتى يصبح ذلك مستحيلاً.

قلت وأنا أبادلها النظرات:

- وخاصة إن كان أحد الطرفين أختاً
بمواصفاتك.

تبادلنا ابتسامة نحن وحدنا من يعرف
معناها.

ثم قلت وأنا أجول بنظري داخل
الغرفة حين خطر ذلك السؤال على
بالي للتو:

- منذ متى وأنا هنا؟

- من أسبوعين.

- أسبو عين؟!!!

قلت مصدومة، فقالت موضحة:

- لقد كان جسدك في حالة سيئة، كاد
النزيف أن يقتلك مستعيناً بهشاشة
صحتك. خفت أن تهملها مجدداً حين
تستيقظين، فطلبت من المستشفى
الاعتناء بك عوضاً عنك، وإبقائك هنا
حتى تستعيدي راحتك وصحتك و... .

- وكان الوقت يهمني...

قلت متممة، فأجابت كأنها استطاعت
سماعي:

- الويزيانا، أنت شابة يافعة ذات
جمال ساحر ونسب عريق وثراء

فاحش، أمامك عمر بأكمله عليك
القيام بأشياء كثيرة وجميلة فيه. لماذا
تتناسين كل ذلك وتهملين حياتك
هكذا؟

قلت مجيبة لها بنبرة يائسة:

- لأن كل ما تتحدثين عنه قد حُرمت
منه، بسبب الخالة البائسة التي تقف
عقبة دون الاستمتاع به.

- ليست هذه النهاية، لا يزال بإمكانك
معالجة الأمر.

- كيف؟

- ربما بالطب النفسي.

- لو كان يستطيع لفعل.

- لكنك لم تسمح لي له.

- أختي، ما يزعجني في الأطباء
النفسيين تظاهرهم بأنهم يشعرون بما
أشعر به، بينما الحقيقة عكس ذلك.

هم حتى لا يصدقون ما أقوله، كل ما
سيفعلونه هو تصنيفي كمجنونة في
النهاية، بعد عجزهم عن معالجتني،
بل وحتى عن فهم طبيعة مرضي.

- لكن لا بد أن نحاول، لا يمكنك
الاستسلام.

- لا رغبة لي في فتح جراحي مجدداً،
وخاصة بعد تفاقمه في الفترة
الأخيرة.

- ولا حتى من أجلي؟

قالت ذلك تستعطفني بعد أن رأت
بصيص أمل في فتحي للموضوع.
كنت قد أغلقته منذ زمن طويل، لكنني
لم أكن مستعدة لأجيبها في ذلك
الوقت.

- هل يمكنني التحدث عن الأمر في
وقت لاحق؟

أومأت بتفهم، ثم نهضت من على
السريـر بعد لحظة صمت قائلة:

- يبدو أن الإقامة أعجبتك هنا، ألا
ترغبين في العودة؟

- إلى أين؟

- إلى القصر.

- أي قصر؟

- أيهما شئت.

- أود الذهاب إلى هامبتونز.

- حسناً، لكن سأذهب معك.

...

قبل أن أنطق بكلمة رفض قالت
بحزم، مظهرة إصرارها:

- لن أتركك بمفردك مجدداً، لا
تحاولي.

- حتى إن طردتك؟

قلت مازحة.

- حتى لو طردتني، لن أبرح مكان
تواجدك ولو قيد أنملة.

ابتسمت باستسلام قائلة:

- ماذا عن أدريان؟

- يمكنه القدوم إن شاء، وإلا فسأتدبر
الأمر، يحب القصر ولن يتركه على
أية حال.

أنهت أختي إجراءات خروجنا من
المستشفى بعد تلك الجلسة التي كنت
في أمس الحاجة إليها، رغم أن
المكان لم يكن مناسباً، لكن ذلك لم
يشكل فرقاً بالنسبة لي.

كانت أختي من تدبر الأمر ، فقد
حرصت على ألا أقابل سواها حين
أستيقظ، أرادت أن تجري حديثاً
طويلاً معي في تلك الغرفة.

بعد خروجنا عدت إلى القصر
بصحبة أختي، كانت حريصة على
إعطائي مساحتي وتفقد أحوالي من
وقت لآخر في الوقت ذاته.

ذهبت إلى دورة المياه كعادتي، ثم
اتجهت نحو حمامي المستقل.

أخذت حماماً دافئاً طويلاً كما يروق
لي، ثم وقفت أمام مرآتي.

كانت الشحوبة قد زالت عن وجهي.

لم يعد الإرهاق واضحاً عليه
كالهالات السوداء، كما استعادت
بشرتي نعومتها وإشراقها.

حين رأيت نفسي بذلك الشكل، حثني
شيء بداخلي على إبراز جمالي أمام
تلك المرأة.

ارتديت ملابس تبرز انحناءات
جسدي ومفاته، وضعت مساحيق
فاخرة على وجهي، ثم عدت لأقف
أمام المرأة مجدداً.

بكامل أناقتي، أجمل ما أكون.

تأملت مظهري الملفت لفترة، فكرت
في كلام أختي، ثم وجدتي أسأل

نفسي: ترى أيمكنني عيش حياة
طبيعية أستمتع فيها بكل ما أملكه؟

داهمت دوامة الخوف ذاكرتي
لتشعرني بحنق اللحظة، ثم تنفست
الصعداء حين تذكرت انتهاء أكبر
اعتياداتي وأكثرها رعباً وتسُلطاً على
واقعي.

لم يكن في حياتي اليومية شيء يذكر.

أتناوب بين غرفتي وتلك المكتبة
الملتصقة بها، كنافذة مطلة على عالم
القراءة.

كان باب المكتبة داخل الغرفة كجزء
منها.

ألجأ إليها تارة بدافع الخوف، وتارة
الفراغ، وتارات كثيرة لانجذابي إليها
ورغبتي التي تدفعني لدخولها مرات
عدة.

لي أوقات أتأمل فيها البحر من داخل
يختي، وأخرى من نافذة غرفتي أو
مكتبتي.

أنتقي كتاباً وأعد كوب قهوة لأجلس
قرب النافذة في جو استرخاء يلفحني
فيه هواء بارد.

نادراً ما أخرج إلى أماكن عمومية،
تحدد حدود خروجي بحدود القصر
وما يحيط به. ذات يوم، حين وضعت
الكتاب الذي انتقيته بين يديّ، تذكرت
يومي في تلك المكتبة.

تذكرت ذلك الكتاب وما كان يتحدث
عنه وكيف كان تأثيره عليّ، ألهذا
الكون حقاً من يديره؟

لقد شدني ذلك الكتاب بشكل غريب،
رغبت في الحصول على كتب
مماثلة، لكنني لم أعد أذكر اسم
المكتبة. ربما وقعت عيني عليه قبل
دخولها، لكنني حتى لو حفظته وقتها
لم يكن ليبقى في ذاكرتي بعد رؤيتي
لذا الزرقاوين.

لقد عنيت ما قلته حين قلت إني وُلدت
ذاك التو، هذا بالفعل ما شعرت به
وقتذاك.

سرحت مجدداً حين تذكرته، قلبي يلح
على لقائه مجدداً، يلح على لقائه مرة
أخرى وأخرى، لكن عقلي لا
يساعده، هو حتى لا يذكر عنوان
المكان الذي جمعنا ذلك اليوم، كأنه
يخشى أن ألتقي به إن زرت المكان.

ماذا لو كان مثلي وتلك أول وآخر
زيارة له لتلك المكتبة؟

أطلقت تنهيدة طويلة حسرة على عدم
تذكري للعنوان.

أخذت الكتاب معي خارج القصر،
ووصلتني القهوة فيما بعد.

جلست على اليخت ونسمات الهواء
تداعب شعري على إيقاع هادئ.

سارحة في ذلك البحر الذي لم أعد
أراه، بل عينين زرقاوين عميقتين
وجميلتين كجماله وعمقه.

كيف تجرأ قلبي على الوقوع في بحر
لا يعرف عمقه؟

ليته عرض الأمر على عقلي قبل
الإقبال عليه، لكنه لم يفعل، بل أطعت
قلبي على العميان.

تمنيت العيش في تلك الزرقاوين،
البحر سطحي والسماء سقفي، تلك
العينان عالمي الذي أتفرد به.

ترى أكون سبب هذا التفكير المفرط
شعلة الأمل التي أشعلتها أختي
بكلامها في ذلك اليوم؟

لم أنم ليلة البارحة، ليس خوفاً من
اعتياد جديد، إنما غرقاً في التفكير
في تلك العينين، اللتين فعلتا بي ما لم
يفعله كل ما تجرعه من أدوية.

جعلت النوم يهجر عيني لتتفرد هي
بي، لا أصدق ما يحدث، لا يمكن
لنظرة واحدة إحداث كل هذا.

لقد سمعت كثيراً عن الحب وما
يحدثه من تغييرات في المحب، لكني
لم أتخيل الأمر بهذا الشكل البتة. لا
أصدق أن نظرة واحدة كانت كفيلة
بجعله ينتشر في قلبي كالنار في
الهشيم، كيف لنظرة واحدة أن تملك
القدرة على إحداث كل هذا
الاضطراب بداخلي؟

عقلي هو من لا يصدق، لكن كل
خلية من جسمي كانت مؤمنة بكل ما
يحدث، مسلمة له، منطاعة لقلبي دون
وعي. ترى ما الذي سيحدث في
النهاية؟

- صباح الاطمئنان.

قاطعت أختي تفكيري، لكن ما أثار
استغرابي هو ردي الذي لم أنتبه له
سوى بعد قوله:

- صباح الأمان.

لا أدري إن كانت جملة عابرة أم
عنيثها، ربما كنت أشعر بالأمان
بالفعل، ونطقت بما أشعر به بشكل
عفوي دون تفكير.

- كيف كانت ليلتك؟

ارتشفت رشفة من كوب القهوة
خاصتي، ثم بدأت قراءة الكتاب
لأجيبها دون النظر إليها:

- جميلة!

- يبدو أنك مسترخية اليوم.

- نوعاً ما.

- لا أقصد التطفل، لكنني أردت
الاطمئنان عليك لا غير.

أبقيت عيني على الكتاب، مواصلة
القراءة مبتسمة وأنا أقول لها دون
النظر إليها مجدداً:

- لا تقلقي، أنا بخير، وهذا بفضلك.

- جيد...

بالمناسبة، متى بدأت القراءة؟

- مذ احتجت لعالم يمنحني ما لم أجده في عالمي.

- وهل وجدت ذلك في القراءة؟

- بل وجدت أكثر من ذلك.

- يسعدني ذلك...

حسناً، سأتركك مع عالمك ما دمت بخير، لدي عمل عليّ القيام به.

- الشراكة؟

- أجل.

- أفكر في زيارة أخي هناك.

- متأكدة؟

- ليس تماماً، أفكر في الأمر وحسب،
اذهبي أنت وسألحك إن حسمت
أمري.

- حسناً.

أغلقت الكتاب وتركته قائلة:

- انتظري.

- ماذا؟

نهضت من مكاني واتجهت نحوها
بعد أن التفتت إليّ، ثم عانقتها لأمكت

في حضنها طويلاً. بادلتني هي ذلك
العناق قبل أن أقوم بفكه.

مسكت يدها وقلت بحب صادق:

- ما دمت بجانبني سأكون بخير دائماً.

ابتسمت قائلة بالمشاعر الصادقة
ذاتها:

- وأنا لا أكون إلا بكونك كذلك!

ذهبت أختي بسعادة لامعة في عينيها
لاستقرار حالتني.

عدت لمكاني مستمتعة في كل لحظة،
شعرت بأمان لا أدري إلى متى
سيبقى في قلبي.

بعد تفكير طويل قررت الذهاب إلى الشركة، أردت رؤية أخي، لم أره منذ زمن طويل شمل فترة اعتناء أختي بي، التي لم تخبره بها.

حاولت تجنب نظرات كل من أمر به، إنها تذكرني بنوبات هلع كثيرة عانيت منها في الأماكن العمومية المزدحمة.

حاولت تجاهلها بشدة، لكنها لا تزال تعيدني لأكثر من ذكرى.

لا يوجد اعتياد في هذه الفترة، إنها «الفترة الآمنة» كما أسميها.

استطعت التغلب على ذلك الضيق الذي شعرت به حين دخلت الشركة

ورأيت الكثير من الناس، ومرت تلك
الزيارة بشكل جيد.

لم تفرحني بقدر ما أفرح أختي
قراري بالمضي قدماً.

بعد زيارة الشركة ذهبت إلى حديقة
سنترال بارك لاستعادة بعض
الذكريات.

ثم جلست على ذلك الكرسي أمام
تمثال الحرية، تأملت التمثال كعادتي،
لكن هذه المرة كان شعوراً غريباً
ينتابني، كأن مشاعر جديدة يشعر بها
قلبي تعطيه حرية من شكل ما. ربما
الحب أن تشعر أنك حر حتى في
سجنك!

كان شعوراً بالغ الجمال، ربما من
الجميل أن يجرب الإنسان الطيران،
لكن الأجل هو أن يطير وهو
مكسور الجناحين!

كان ذلك الشعور يمنحني شيئاً جميلاً.
أغمض عيني حين أتذكر من كان
سبباً به.

حين أغمضهما لا أرى الظلام، بل
أراه، كأني بإغماضهما أرى ما
بداخل قلبي!

كانت جلسة هادئة جميلة أطلتها عمداً
قبل عودتي إلى القصر.

دلفت إلى غرفتي، ثم وقفت عند عتبة
مكتبتي متلهفة للكتابة.

متحمسة للكتابة في دفثري كما لو لم
أكن أستطيع الكتابة في سواه.

كتبت عن أختي في البداية، عن حبي
الأول الذي لم أكن أعرف سواه.

ثم كتبت عن شيء آخر لم يكن مألوفاً
لي، عن حبي الثاني الذي لم أعرفه
بعد، رغم كل ما أحدثه بي.

لم أكتب عن وقع عيني على
زرقاويه، بل عن وقع قلبي عليهما،
وما أبعد هذا من ذاك!

هاجت المشاعر بداخلي أكثر، أراد
قلبي رفض تأثير نظرة واحدة، لكن
عقلي سرعان ما أسكته.

شغل الأمر تفكيري طويلاً قبل أن
يغلبني النعاس...

لا أزال في غرفتي والدماء متدفقة
من إصبعي، شبه فاقدة للوعي، أنظر
بعينين شبه مغلقتين إلى ذلك الكائن
الغريب.

يشبه المسخ، على بعد مني حيث
وصلت الدماء.

يلعق دمائي بنهم من على السطح،
كان يلحقها مقترباً مني أكثر بعد كل
خطوة له.

كان شكله يحمل الرعب في كل
تفاصيله، عيناه اللتان تكادان تخرجان
من محجريهما، لونهما الأحمر

اللامع، أنفه المقرز الذي يشتم رائحة
كل ما في المكان، وينجذب لرائحة
الدماء بشكل مقلق، فمه الذي بدا
معتاداً على الدماء.

اقترب مني بوجهه المقرب، اقترب
من إصبعي النازف، ثم قال وعيناه
تزداد لمعاناً بصوت يشبه الفحيح:

- دمااااء!

قبل أن يطلق ضحكة مدوية جعلتني
أرتجف.

لم يكن جسمي يقوى على الحراك،
حاولت الهروب أو حتى الابتعاد ولو
قيد أنملة، لكن جسمي أبى أن
يتحرك.

خذلتني قواي، فأغمضت عيني
مستسلمة لما يحدث.

بعد لحظات شعرت بشيء ينتشلي
من مكاني، حملني وركض بي دون
أن أتمكن من تمييزه، لم أعرف ما
هو أو من هو.

فتحت عيني، فإذا به هو، إذا به ذا
الزرقاوين.

كانت أنفاسه متسارعة، يلهث أثناء
ركضه، وكل تركيزه على الابتعاد
عن ذلك المكان بأي طريقة.

استرقت النظر من خلف كتفيه، فإذا
بالمسخ يلحقنا راكضاً بسرعة رهيبه
على أطرافه الأربعة.

كان الشر يتطاير من عينيه
الحراروين، وفي لحظة كاد أن ينقض
علينا لو لم نقع في ذلك القاع العميق.

ما إن ارتطمت بالسطح حتى فتحت
عيني مستيقظة.

على سريرى، في غرفتي مجدداً،
وأشعة الشمس تتسلل إليّ.

نهضت من على السرير وقد صقلني
العرق، ألتقط أنفاسي بصعوبة.

لا أدري ما الذي حدث بالضبط قبل
قليل:

هل أنقذني ذا الزرقاوين أم أنا من
قاده نحو الهلاك؟

شعوراً غريباً انتابني، لأول مرة
تكفي نومة واحدة للتخلص من اعتياد
ما.

استطعت ملاحظة تطور حالتي،
لكنني لم أعرف ما إن كان للأحسن أم
للأسوأ!

حاولت عدم إتعاب نفسي في التفكير
في أمر كهذا.

نهضت قبل أن أتجه نحو دورة
المياه، ثم إلى حمامي المعتاد.

شعرت برغبة في قضاء بعض
الوقت مع أختي بدل القراءة أو
الكتابة.

ذهبت إلى غرفتها، أكثر أوقاتي متعة
تلك التي أقضيها مع أختي.

كانت ذات صدر رحب لكل طلباتي.

لم يتوقف الأمر على ذلك اليوم،
رأيت الكثير من الكوابيس المشابهة
التي كانت تنتهي بالطريقة ذاتها.

في نومة واحدة بالوقوع في تلك
الهاوية التي لا أعرف يوماً من أين
تأتي.

كان الوضع مزعجاً، لكنه كان أخف
مما كنت فيه قبله.

في كل مرة ينقذني ذلك الشاب
بالطريقة ذاتها!

لكني رغم كل ذلك كنت أشعر
بتحسن كبير.

أقضي أغلب وقتي مع أختي أو
قهوتي وكتابي على يختي.

من وقت لآخر أذهب معها إلى بعض
المطاعم والمقاهي، شريطة أن نقوم
بحجزها كلها، تجنباً لنوبتي التي
اعتدتها في الأماكن المزدحمة.

لا أزال أفكر في ذا الزرقاوين، لكني
بدأت أحاول إقناع نفسي بما جعل
التفكير أخف عليّ:

«الصدفة التي جمعتنا أول مرة قادرة
على جمعنا مجدداً».

إن كان لي فستعيده، ولدي شعور بأنه
لي!

بحثت عن المكتبة، وعن كتب
مشابهة لذلك الكتاب، لكنني لم أعثر
على أي منهما.

بعد استيقاظي في كل يوم لأبد لي من
أن أكتب، صار الأمر عادة يصعب
الإقلاع عنها.

قمت بتأليف الكثير من القصص
والروايات التي جعلت منها كيس
الملاكمة خاصتي، أفرغ فيه كل ما
أشعر به على شكل غضب.

جعلت من كوابيسي الإلهام لإنهاء
حياة الشخصيات التي أكتب عنها.

أقتلها بطرق غريبة ومتوحشة
بطريقة ما، أود منها تجربة ما
عشته، لذا كنت أعذبها بشكل مباشر
تارة، وتارة بواسطة أحبابها كما هو
حالي.

كلما أويت إلى فراشي واصلت
الكتابة، كما لو كنت أرمي أي شر
أتوقعه على تلك الشخصيات، جعلتها
تعيش مخاوفي بدلاً مني.

كانت الفكرة ناجحة بطريقة ما، فبعد
إنهائي لأي قصة كنت أشعر أنني
أخف، أنني تخلصت من أشياء ثقيلة
كانت ترهقني، وكأن تلك الشخصيات
كانت تحمل تلك الأشياء عوضاً عني
بالفعل.

كان الأمر ممتعاً بطريقة ما، شعرت
أنه يمنحني أملاً في النجاة، أملاً في
تحسن حالتي، فواصلت الأمر على
النهج ذاته.

ذات يوم على يختي مع قهوتي، قلت
لأختي التي كانت تجلس بجانبني
كعادتها:

- أتذكرين ما قلته لي في المستشفى؟
يوم سلخت أصبعي؟
أعتقد أنه...

ربما معك حق...

أشعر الآن أنه...

ربما ثمة أمل في شفائي.

فرحت لمجرد فتحي للموضوع
مجدداً، ثم تضاعفت سعادتها حين
أدركت تقبلي للعلاج.

- لا تعلمين كم أنا سعيدة الآن بما
سمعته منك، سأبحث لك عن أشهر
الأطباء النفسيين وأكثرهم كفاءة في
العالم بأسره، سأباشر في البحث على
الفور...

بعد تلك المحادثة بدأت أختي بحثها،
كانت مؤمنة أن شفائي سيكون على
يد ذلك الطبيب الذي تبحث عنه.

لا أدري من أين أتت بكل تلك الثقة،
لكن أملها بدا أكبر بكثير من أمني
وتفاؤلي.

واصلت أنا العيش على نفس النهج،
على الروتين ذاته، كان كل شيء
على ما يرام قبل تلك الليلة...

كانت ليلة عادية كسابقاتها في البداية،
أنهيت كتابة قصة ثم خلدت إلى
النوم، لتقلب حياتي منذ تلك اللحظة
رأساً على عقب.

بدأت أعيش أدوار شخصيات
قصصي ورواياتي التي كتبتها،
واحدة تلو الأخرى.

بدأت تقمص كل شخصية، كل الآلام
والمخاوف التي جعلتهم يعيشونها ها
أنا أعيشها الآن في هذه الليلة.

كانت ليلة طويلة كغيوبتي التي
استمرت لأكثر من عام.

كان ما عشته تلك الليلة الجحيم بعينه.

كانت تلك المقتطفات التي عشتها في
تلك الليلة كفيلة بجعلي أخاف أيامي
القادمة كما لم أخف من قبل.

إن كنت سأعيش حيوات كل تلك
الشخصيات فلن أصمد، سيكون ذلك
أشبه بجحيم أبدي لا ينتهي إلا
بانتهائي!

ما كتبته كان كثيراً، كان أكثر حتى
من أن يُعِشني في رعب طيلة
حياتي.

حين استيقظت في ذلك اليوم لم تكن
حالتي قابلة للوصف، لكن ربما كانت
أشبه بنوبة هلع، كانت كل المشاعر
السيئة تتضارب بداخلي، تظهر بأبشع
صورها، كان ذلك المزيج الذي
لطالما اعتدته يترأسها:
#الخوف_الحزن#

لم أكن أعلم ما الذي عليّ القيام به
وقتها، لكن هاجساً بشعاً جعلني
أعرف على الفور!

عليّ تفقد أختي، عليّ الاطمئنان
عليها، أخشى أن أكون... أن أكون قد
فقدتها!

ركضت نحو غرفة وأمنية واحدة
يتمناها قلبي، بينما يضج عقلي

بعكسها. أتمنى أن تكون أختي على
ما يرام، أن يكون كل ما رأيته مجرد
كابوس لعين لا يعني من الواقع شيئاً.

تجمدت عند عتبة الغرفة، صافنة فيها
بينما كانت تنام بسلام على سريرها.

لم أمتلك الجرأة لتفقدتها عن قرب،
للتأكد ما إن كانت قد فارقت الحياة أم
أنها نائمة فحسب!

قضيت هنيهة عند العتبة في صراع
داخلي، سيطر عليّ الشعور بالرغبة
في تفقدتها.

بخطوات حذرة خطوت نحوها،
بالكاد أنطق باسمها، أناديها بصوت
أبى الارتعاب إلا أن يجعله خافتاً.

لم أتلّق أي إجابة، مما زاد خوفي.

لا شيء سوى الصمت.

لا يكسر هدوء المكان سوى ندائي
الخافت.

وقفت قرب سريرها.

تحسست أنفاسها بأطراف أنامل
مرتعة.

لم أجد لها نفساً!!

وضعت أذني على صدرها.

لم أشعر بنبضات قلبها!!

رغم كل ذلك لم أصدق ما بدأ عقلي
يرمي إليه.

مسكت كتفيها وهز زتها منادية لها،
كان صوتي متحشراً هذه المرة،
بكائي ينبئ على قرب قدومه.

لم أجد أي إجابة!!

ضممتها إليّ، قربتها من صدري،
أردت من قلبي أن يشعر بقلبها، هو
وحده من سيحسم الأمر، لكنه لم
يشعر بأي شيء!!!

لم أكن أصدق أذنيّ، تجاهلت كل
الدلائل التي كانت تثبت تحقق
الهاجس الذي أبى قلبي تصديقه.

حتى بعد عدم سماعه لنبضات القلب
الذي لطالما كان مأوى له.

ضممتها لصدري أكثر وأكثر قبل أن
أبدأ بالصراخ بهستيرية.

مناجية لها كي تعود، معاتبة لها على
تركي بتلك الطريقة، خاطبتها كما لو
كانت تستطيع سماعي.

ثم وقعت عيني الدامعة على شيء
لفت انتباهي، على ورقة بالكاد كان
يظهر نصفها من تحت الوسادة.

كانت الورقة آخر دليل أثبت ما لم
أستطع استيعابه، أو لم أجروء على
استيعابه.

التقطت الورقة ورعشة غريبة تسري
في سائر جسدي.

بدأت قراءة محتواها، أعود لقراءتها
مرة بعد مرة.

تعود عيني لقراءتها بعد كل مرة،
وهي لا تصدق ما كُتب فيها.

كانت رسالة وداع أختي، من
كتبتها...

كانت مريضة بالسرطان، علمت
بذلك قبل قدومها معي إلى القصر،
أرادت قضاء أيامها الأخيرة معي.

عبرت عن امتنانها لموافقتي على
العلاج قبل وفاتها، حذرتني من لوم
نفسي على موتها، ومن ربطه
بحالتي، وأيضاً من إيذاء نفسي بعد
رحيلها...

أرادت التخفيف عني بتلك الرسالة،
لكنها لم تفلح.

لم أستطع إلا ألوم نفسي على ما
حدث معها، كما لم أستطع تخيل
حياتي بعدها، لذا بدت فكرة الانتحار
ملائمة.

كانت أصوات غريبة تطن في أذنيّ،
وأفكار أكثر غرابة يضج بها عقلي،
ثم بدأت صوراً بشعة تظهر أمامي.

لا يمكنني وصف الشتات الذي
وصلته وقتذاك، كنت في ضياح
حقيقي...

كنت أظهار بالقوة أمام الجميع عدا
أختي، لم أكن أظهر ضعفي لسواها،

يحتاج المرء لمن يشاركه لحظات
ضعفه، وقد كانت أختي هي ذلك
الشخص.

شاركنتي أكثر لحظاتي ضعفاً، بفقدتها
لم أفقد أختاً فحسب، بل فقدت ملاذي
الوحيد، فقدت الكتف الذي كنت أستند
عليه، فقدت مأوى كنت ألجأ إليه في
كل مرة أشعر بالضياح، كانت حيث
أبحث دائماً عن الأمان، كانت
الحضن الدافئ الذي لم يفشل مرة في
التخفيف عني، مهما كنت مثقلة.

لقد آوتني في أوقات تخلّيت فيها عن
نفسي.

هي من كان ينتشلي من عالمي
البشع، الآن بعد رحيلها لم يعد في

حياتي ما يرغبني في عيشها، لم يعد
لديّ سبب لأعيش من أجله، لم أعد
أطيق شيئاً في الحياة، لم أعد أرى
فيها سوى الفراغ، لا شيء سوى
الفراغ، الفراغ فحسب...

مر أسبوع على وفاة أختي، قطعت
علاقتي مع أدريان بشكل نهائي،
نقاشات طويلة احتدمت بيننا، ثم
أوصلتنا لطريق مسدود.

أردت تركه منذ البداية والابتعاد عنه،
تلك كانت رغبتي ولم تكن صعبة
المنال.

لم يكن أخي كأختي، لم يكن إنهاء
علاقتي به صعباً كما هو الحال معها.

لم يعد النوم ولا الاستيقاظ يشكل فرقا
بالنسبة لي، أثناء كليهما كنت أمكت
في جحيم مروع، تحولت حياتي
لأسوأ كابوس يمكن للإنسان عيشه.

حبست نفسي بين جدران غرفتي
الأربع، فقدت شغف القراءة وحتى
الكتابة، لم أعد أقرب من إحداهما
دون أن أصاب بنوبة ترغمي على
التوقف عنهما.

أغلب أوقاتي أحشر نفسي في إحدى
زوايا الغرفة، أجهش في البكاء حتى
تنشف دموعي، ثم ما ألبث أن أذكر
ما أنا عليه حتى أعود إلى البكاء
مجدداً.

طوال الوقت أصبحت في تلك
الزاوية، منكشّة على نفسي خوفاً
وحزناً في الوقت ذاته.

صارت علاقتي مع كوابيسي أسوأ،
صرت أستيقظ وكدمات تغطي
جسدي، حتى وأنا مستيقظة أشعر
بأحد يمزق جسدي، يمزقه بنصل
حاد.

في كل مكان من جسمي أشعر بتلك
الجروح، الصراخ مستمر، استمر
حتى أدمنته أذناي، حتى لحظات
الهدوء التي أنعم بها لم تكن الأفضل
بالنسبة لي.

تلك الكائنات الغريبة المتوحشة
صارت مقيمة معي، أراها طوال

الوقت، وفي كل مرة تكاد توقف قلبي
«ليتها أوقفته».

لم يعد لدى عقلي طاقة تحمل ولا
حتى قلبي.

حاولت جاهدة تلبية طلب أختي كما
وعدتها، حاولت عدم إيذاء نفسي،
لكن حيرة قاتلة كانت تدفعني لعدم
الوفاء بذلك الوعد.

ترى أعليّ قتل نفسي أم انتظار موتي
بعد الكم الهائل من الإيذاء الذهني
والجسدي الذي أتعرض له؟

فقدت كتف أختي تماماً كما فقدت
الراحة التي كانت عتبة مكتبتي
تمنحني إياها.

حزن وخوف وضياح، تلك صارت
حياتي باختصار...

ذلك ما امتلأ به قلبي وضاق به
صدري ويضج عقلي به طوال
الوقت، ضج به حد الانفجار.

ذلك الأسبوع كان من أسوأ ما عشته
طيلة ما مر من حياتي، عشت فيه
أكثر أيامي سواداً، خفت فيه كما لم
أخف من قبل، حزنت كما لم أحزن
من قبل، وكنت وحيدة فيه كما لم أكن
من قبل.

لم يعد لديّ أي اتصال من أي نوع
مع العالم الخارجي، أغلقت كل
حساباتي على مواقع التواصل
الاجتماعي.

لم أكن أتواصل سوى مع تلك
الخادمة، ربما هي من كان يوصل
أخباري لأختي حين لم تكن معي.

تجلبب الأكل لغرفتي كالسجينة، حين
أسألها ما إن كانت ترى الكدمات التي
اكتسب بها جسدي، كانت تجيب نفيًا،
كانت إجاباتها تزيد الأمر قسوة عليّ.

لم أكن تلك الفترة أرى سوى السواد،
أحببت العتمة، رغم أنها لم تكن هينة
عليّ.

كنت أطفئ الأنوار وأغلق باب
غرفتي، ثم أحاول تجاهل أي صوت
قد أسمعه أو أي شيء قد أراه.

تمنيت أن أصاب بالتبald لأرتاح، لكني
لم أصب به.

بعد صراع طويل بين إيفائي بو عدي
والاستسلام لفكرة الانتحار، استسلمت
في النهاية لتلك الفكرة...

علقت الحبل في الغرفة المشؤومة
بيدين مرتجفتين، وضعت الكرسي
مقابلاً له، ثم صعدت مهزومة يائسة،
عازمة على كتابة النهاية، لكنني في
الوقت ذاته ترددت، ليس خوفاً من
الموت ولا تشبثاً بالحياة.

حياتي البائسة صار إنهاؤها كشربة
ماء أتعطش للارتواء منها.

بشعة، أتلهف للتخلص منها، لكن
وعدي لأختي جعلني أتردد، أردت
الإيفاء به بحق، لكنني أُجبرت على
نقضه.

وضعت قدمي على الكرسي، أدخلت
رأسي في الدائرة التي رسمتها
بالحبل.

بقيت حركة واحدة، لم يبقَ سوى
تحريك قدمي ليسقط الكرسي،
ولتصعد روحي المشوّهة.

أغمضت عيني استعداداً للأمر،
رفعت قدمي لدفع الكرسي...

ثم أتى ذلك الصوت ليوقفني. صوت
رنين هاتف المرمي على المنضدة،

صوت لم أحسب له حساباً قط.
فاجأني رنينه، فليس لي أي اتصال
من أي نوع مع أي شخص.

رقمي لا يعرفه سوى أخواي، من
المتصل إذا؟!!

ما الذي أفكر فيه الآن؟

كيف لمن لف حبل مشنقته حول
رقبته أن يلقي بالاً لهاتفه ومن يتصل
به؟

أي جنون هذا؟

هذا ما حاولت إقناع نفسي به، لكن
شيئاً غريباً بداخلي دفعني للتراجع!!

كنت مترددة منذ البداية، لكن...

تلك الرغبة الغريبة في الرد على تلك
المكالمة شدتني بقوة، أرغمتني على
التوقف.

نزلت من على الكرسي، لا أصدق
أن سبباً غريباً كرنين هاتف جعلني
أراجع عن أمر جلل كأنهاء حياتي!

كان الأمر غريباً، شعرت أن أحداً
كان يتحكم بي!

التقطت الهاتف بحذر، أجبت على
الرقم الغريب، وضعت الهاتف على
أذني، ثم انتظرت صوتاً من الطرف
الآخر...

- الويزيانا روكفلر؟

لم أجب، وبقيت مستغربة من
الصوت الأنثوي وكيف حصل على
رقمي.

تكلم الصوت الأنثوي ثانية:

- أنسة روكفلر؟

قلت بتردد جليّ في صوتي:

- نعم!

- أختك، الأنسة إيميلي روكفلر،
حدثتنا قبل أسبوع حول جلسة مع
الطبيب النفسي سالفادور دونوفان،
لكن الأستاذ كان مسافرًا في ذلك
الوقت. طلبت منا إخبارها حين يعود،
والاتصال بهذا الرقم في حال لم

نستطع التواصل معها، قالت إنه
لصاحبة الجلسة.

آنسة، هل لا تزال أختك تود جلسة
مع الأستاذ؟

آنسة روكفلر؟

ما إن سمعت اسم أختي من تلك
الموظفة حتى عادت ذاكرتي إلى
حديث أختي عن العلاج، ثم إلى
نهايتها.

الآلام التي حاولت دفنها ونسيانها
عادت مجدداً، عادت بهجوم عنيف،
تغرس سكاكين الفقد في قلبي بعنف.

استقرت غصة وسط حنجرتي.

استرجعت تلك الذكريات التي
جمعتني مع أختي في أيامها الأخيرة،
ثم تذكرت أنها لم تعد سوى ذكرى
جميلة.

قلت بصوت متحشرج ينذر بالبكاء:
- أحدثك لاحقاً.

رمى الهاتف بعنف على المنضدة،
وتناوبت نظري بينه وبين حبل
المشقة.

الحبل الذي وضعته لزهق روحي،
شيء ثقل يستقر على قلبي، ضيق
شديد يعيق تنفسي، أنا أدور أو
الأرض كانت تدور، لا أدري...

لكني كنت ضائعة بحق.

«الموت صعب، والحياة أصعب.»

كسرت كل أثاث الغرفة، حتى
وصلت إلى تلك المزهرية التي أردت
تحطيم المرأة بها، فتوقفت.

توقفت منكسرة قبلها، محطمة، تحطم
قلبي حزناً على تلك الفتاة.

الواقفة أمامي كالوردة الذابلة، فاقدة
الأمل في أن تزهر مجدداً.

حزنت على حالي، على ضياحي
وجحيمي، سقطت أمام تلك المرأة،
بجسد واهن، بقلب محطم، وبروح
منهزمة لا طمع لها بالانتصار.

أجهشت في البكاء، بكيت كأن بكائي
طوال الأسبوع الماضي لم يشبع
رغبتي في البكاء!

قلت بمرارة:

- أنا متألّمة جداً يا أختي، ليتك هنا
لتشاركيني انتظار انتهاء ألمي كما
عهدتك...

قضيت فترة طويلة على الوضعية
ذاتها، تحجرت الدموع في مقلتي،
اجتاز ألمي مرحلة البكاء، هذا البكاء
لا يخفف عني شيئاً على أية حال.

ثم نهضت، اتجهت نحو الحمام،
أخذت حماماً ساخناً طويلاً، تمنيت لو
بإمكانه غسل كل ما أشعر به.

استلقيت على سريرى منهكة، غرقت
في نوم عميق.

أصبحت كثيرة النوم في الفترة
الآخيرة، ربما هذا أحد أعراض
الاكتئاب.

كان ما أراه في نومي قاسياً وصعباً
قبل ذلك اليوم.

كان ما رأيته مختلفاً، شعرت براحة
غريبة، كانت أول مرة أرى أختي
فيها أثناء نومي.

كانت تناديني بحب، وبصحبتها طفلة
صغيرة تداعبها.

كانت السعادة تغمرها، كان ذلك
المنام من أجمل ما رأيته قبل ذلك
الصراخ الذي ظهر فجأة مع ذلك
الدخان الذي حال بيني وبين أختي.

بدأت الفتاة الصغيرة تبكي بحرقة،
وبدأت أختي تبكي مستجدة، اخترقت
ذلك الدخان، فحجبت رؤيتي.

هدأت الأصوات، خيم الصمت على
المكان، حل الظلام في أرجائه.

صوت رجولي ينادي باسمي، يطلب
مني العودة. في البداية تجاهلته،
واصلت السير اتجاه أختي منادية
باسمها، لم تجب، بدأ الخوف يسيطر
عليّ، والصوت الرجولي لا يزال
يوصل ندائه.

التفت نحو مصدر الصوت،
فاصطدمت بعيني صاحب الصوت.

لأتفاجأ بكونه ذا الزرقاوين ذاته!

لم أره مذ بدأت شخصيات قصصي
بتعذيبي، اشتقت لرؤيته.

لكني استغربت في الوقت ذاته.

شيء ضخم خرج من جوف الظلام
ليلاحقني.

نداء ذا العيون الزرقاء بدا كطوق
نجاة.

مد لي يده، قال إن كل ما عليّ القيام
به هو وضع يدي بيده، شعرت
برغبة في التشبث بها.

وضعت يدي بيده، فتلاشى مع كل ما
كان في ذلك المكان، وحتى المكان
ذاته!

استيقظت والعرق يتصبب من
جبیني، كنت مفزوعة، لكن شعوراً
آخر امتزج بذلك.

التمست شيئاً لم أتوقع أنه لا يزال
بداخلي قط.

شعرت بأمل قادم، يود أن يضيء
عتمتي التي مكثت فيها عمراً.

شيء ما يدعوني إلى المحاولة، إلى
الخروج من حالة اليأس البائسة التي
حبست نفسي فيها.

شعرت أن تغييراً إيجابياً سيحدث في
حياتي، ابتسمت، ووجه أختي المبتسم
في ذلك المنام لا يغادر ذهني
المضطرب.

ذهبت إلى رفيقتي التي أخبرها عن
كل ما يطرأ عليّ، صديقتي التي
أستشيرها في كل ما يخصني، تلك
التي تعرفني أكثر من نفسي، والتي
تنبهنني حين أفقد نفسي دون شعور.

ذهبت إلى مرآتي!

بعد المحادثة ألغيت فكرة الانتحار،
نمت ولا أعرف بمَ كنت أشعر حين
نمت.

رأيت شيئاً في المنام أسعدني، رأيت
ابتسامة أختي، وسط كل البشاعة
رأيت ذلك الشيء الجميل.

حين استيقظت كنت أغرب مما كنت
قبل نومي.

وقفت أمام المرآة، نظرت إليها بنظرة
انتشاء وثقة غريبة جهلت مصدرهما.

شعرت أنني لم ألحظ إهمالي لنفسي،
وظلمي لها، وخذلاني لأختي قبل
وقوفي ذاك.

كأنني عدت من غفوتي للتو، قلت
بنبرة واثقة:

- لست أنا من يستسلم لمخاوفه ويدس
نفسه في عتمة أحزانه.

سأختار ما يناسبني.

مواجهة كلٍّ منهما بشموخ لا
يتزعزع.

هكذا عهدت نفسي، ولن أسمح لأي
شيء بإيقاعي مجدداً.

قصدت كل ما تفوهت به وقتذاك.

وقفت عند عتبة باب غرفتي، ترددت
قليلاً قبل أن أستجمع شجاعتي

للخروج، ثم، ولأول مرة بعد وفاة
أختي، غادرت تلك الغرفة.

ذهبت إلى يختي الذي افتقدته، وثقة
مجهولة المصدر تتنامى بداخلي.

لكن رغم كل تلك الثقة، كان جزء
مني خائفاً!

خائفاً من التشبث بالأمل مجدداً، لا
أود أن أنهار مجدداً، قلبي لن يتحمل.
ترددت كثيراً قبل اتخاذ تلك الخطوة،
بينما كنت موقنة أن ما حدث كله كان
مؤشرات لأعيد المحاولة.

ظهور مسألة العلاج في ذلك الوقت
بالضبط، رؤية أختي بعد أن هجرت

أحلامي مذ بدأت أحلم، رؤية ذا
الزرقاوين كطوق نجاة مجدداً.

كل هذا يجعلني أعيد التفكير، ربما لا
يزال للأمل مكان في حياتي.

تأملت البحر كما لم أفعل منذ زمن،
بعد غياب طويل وجددتي أتأمله بينما
سؤال واحد يملأ عقلي:

«ترى ما الذي يخبئه لي الغد؟»

لم يشغل الغد بالي من قبل، ربما
لأنني كنت مستسلمة لانهياري. طيف
ابتسامة ارتسم على محياي حين
تذكرت ذا الزرقاوين.

سؤال جديد أخذ حيزاً من ذهني:

«تري أتجمعنا الصدفة ثانية كما
جمعتنا أول مرة؟»

بقيت لفترة غير متشجعة على
الإقبال، ثم حسمت أمري.

التقطت هاتفي، أعدت الاتصال
بالرقم الأخير، حجزت جلسة لي مع
ذلك الطبيب، عرفت الموعد
والعنوان، ثم أغلقت الخط.

يوم الجلسة:

أخذت حماماً دافئاً طويلاً كعادتي، ثم
وكما اعتدت، بعد أن جهزت نفسي
وقفت أمام المرآة ممعنة النظر فيها.

أخذت شهيقاً طويلاً، ثم أطلقت من
فمي زفيراً مع تهيدة طويلة، أريد
طرده كل ما يثقل أعماقي.

- أنا قوية بما يكفي لاستئناف حياتي
من حيث توقفت.

هذا ما قلته لنفسي بثقة، محاولة
إقناعها به.

اتجهت إلى حيث يعمل الطبيب الذي
حجزت موعداً عنده.

«د. سالفادور دونوفان»

اتجهت نحو الغرفة التي يستقبل فيها
مرضاها.

تمعنت فيها طويلاً، كانت كالمكتب
لكن بشكل مريح، يشعرك بألفة
غريبة.

كأنها كانت غرفة لكل من ضاقت
عليه جدران غرفته.

درت بنظري فيها سريعاً، ثم توقفت
عيناى على مالكةا، تسمرت عند
العتبة غير مصدقة عيني.

اختلفت مشاعري، نظرت إليه
بدهشة عاجزة عن استيعاب ما أراه.

شاب طويل القامة، ذو بشرة ناصعة
البياض وشعر فاحم ذو خصلات
متمردة، وعيون...

وعيون زرقاء!!

إنه صاحب العيون الزرقاء بالفعل!

لم يكن شعوري بالألفة في تلك
الغرفة كالشعور الذي غزا قلبي حين
وقعت عيناى على تينك الزرقاوين.

شعوراً غريباً بالانتماء، كأني كنت
قبل ذلك متشردة تبحث عن مأوى، ثم
وجدت وطناً يحتضنها بدفء لينسيها
كل ما سبق وعاشته...

شيء غريب يجعلني أهيم فيهما، أفقد
الإحساس بالعالم من حولي، لا أعود
أرى سواهما ناسية نفسي.

حاولت احتضانهما بنظراتي بشدة،
كأن رؤيتهما تطفى نار الشوق التي
كانت تلتهمني بنهم.

أجل، لقد كنت مشتاقة لهما!!

مر وقت طويل مذ رأيتهما أول مرة،
لم أستعد وعيي حتى ارتطمت
بالباب، لأتأوه حين أَلمتني الرضوض
التي نسيتها للحظة.

لم أكن وقتها أشعر سوى بوقع
زرقاويه على قلبي الذي اضطربت
نبضاته...

استعدت شيئاً من وعيي، فقلت بتلعثم:

- ال... أستاذ س... سالفادور
دونوفان...

أجاب مشيراً لي بالدخول والجلوس
على الكرسي المقابل له:

- أجل، تفضلي.

اتجهت نحو الكرسي بخطوات غير
متزنة، استرجعت أحداث ذلك اليوم،
لقد رأني يومها، وحاول مساعدتي...

لكن ما الذي يعنيه ذلك؟

ما الذي أنتظره منه؟

أن يستقبلني بالأحضان!!

حاولت السيطرة على نفسي والقيام
بما أتيت لأجله.

عاهدت نفسي أن أشارك طبيبي
الآخر كل تفاصيل حالتي، كما
وعدت أختي.

أنوي إعطاء نفسي فرصة أخيرة،
أنوي البوح بكل ما يثقل قلبي المعتم
الأدهم.

لكني لم أتوقع أن أجد الشخص
الوحيد الذي شعرت بالانتماء إليه
غير أختي في هذا المكان، ليستمع
إليّ!

لكن عليّ أن أسمح له أن يراني
ضعيفة في أول حديث لنا؟

لن أهتم لذلك، فأنا لا أري ضعفي
سوى لمن تأكدت أنه أهل لذلك.

وهذا ما أشعر به الآن نحوه، شعور
يدفعني للبوح بما أجد صعوبة دائماً
في البوح به.

- أنا... منذ صغري كانت تراودني
كوابيس خلال نومي، ثم تُستأنف
أحداثها بعد استيقاظي.

كان كل ما يحدث فيها كالواقع تماماً،
أرى الشخصيات ذاتها في الواقع،
أعاني من رؤية تلك الأشباح حتى
أعود إلى النوم مجدداً...

يبقى الأمر متواصلاً حتى تنتهي تلك
القصة لتبدأ أخرى...

تطور الأمر بعد ذلك، صرت أرى
موت أشخاص قرييين مني، ثم يتحقق
ما رأيته بعد ذلك.

كأن كوابيسي أصبحت رؤيا بشعة،
بشعة تعيشني الجحيم بأصناف عدة.

أثرت حالتي على تواصلي مع
الناس، وحتى على علاقاتي، فأثرت
الابتعاد والاعتزال بنفسي.

منذ أكثر من عامين أو ثلاثة قررت
تجربة الاحتكاك بالبشر، خرجت في
رحلة مع أصدقائي...

وهناك بدأ جحيمي الفعلي، رأيت
موت ستة أشخاص في آن، ثم غرقت
في غيبوبة استمرت لأكثر من عام.

الغريب أنني في هذه الفترة عشت في
عالم آخر!

ثم عدت منه وأحداثه تتسرب إلى
واقعي...

منذ فترة وجدت حلًا مؤقتًا
لمشكلتي...

أكتب قصصًا أجعل شخصياتها تعيش
ما عشته وأسوأ.

ثم بدأت تلك الشخصيات تتسرب إلى
واقعي هي الأخرى.

فقدت حينها آخر ما تبقى لي، وأعز
ما كنت أملكه.

فقدت أختي!

بدأت أشعر بغصة تثقل صوتي،
لكنني أكملت:

أعلم أن ما أقوله لا يقبله عقل ولا
منطق، وكلاهما ينكر كونه حقيقة،
لكن...

موت كل أولئك الأشخاص كان
حقيقة، خوفي حين رأيت تلك
المشاهد كان حقيقياً.

"قساوة تأثير ما عشته عليّ كانت
حقيقة، وإن لم يكن ما عشته حقيقة!"

شعوري بالخوف، الحزن، الفزع،
وحتى اليأس، كل ذلك كان حقيقياً.

أنا لا أنتظر منك تصديقي، كل ما
أوده الآن هو إيجاد حل يجعلني
أتغلب على تلك المخاوف.

حل يجعلني أفقد الإحساس بها،
يجعلني أستأنف حياتي دون أن يؤثر
خوفي على ذلك.

أصغى إليّ طيلة حديثي، كان مركزاً
في كلامي وفي كل انفعالاتي، بدا
يحاول انتقاء كلمات مناسبة لي، أو
يحاول رؤية شيء لم يره أحد قبله
قط، ولا حتى أنا!

- يعني كلامك أنك تضعين ضمن
الاحتمالات كون كل ما رأيته مجرد
أوهام؟

أومأت إيجابًا، فقال:

- ما قلته ليس حقيقة.

نظرت إليه مستفسرة، فأكمل:

- أنت تقولين ذلك حتى لا يقوله
غيرك.

- كيف؟

- أنت حين تخبرين أحدهم بقصتك
تكونين حريصة دائمًا على وضع
احتمال كونك لا تصدقين ما تعيشينه
أمامه، تعلمين أنه لن يصدقك، لذا
تجعلين المشكلة تبدو عاطفية أكثر
من كونها عقلية.

تتجاهلين اضطراب عقلك وشرح
حالته لتغطي على ذلك بتركيزك على
الكلام عن مشاعرك.

ألم تلاحظي أنك، وقبل أن أبدي رأيي
في ما إذا كنت أصدقك أم لا، أجبت
نفسك بقولك إن كل ما رأيته ربما لم
يكن حقيقة؟

كنت منصتة له بانتباه، فاسترسل
مكملاً كلامه:

- لنأخذ مثلاً...

حركتك اللا إرادية حين ارتطمت
بالباب لم يكن السبب فيها الارتطام
فحسب، إنما كدمات جسدك اللا
مرئية.

نظرت إليه بدهشة وعدم استيعاب،
كيف علم بالرضوض؟

أجاب وكأنه سمع سؤالي:

- من الوارد أن تتسألي الآن كيف
عرفت، لكن ما لا تعرفينه هو أن
حالتك، وإن كانت نادرة، إلا أن
الكثير من جوانبها سبق أن عانى
منها الكثيرون.

وأحد تلك الجوانب وهم الألم الذي لا
وجود له، إيهام عقلك لك بأن تلك
الآلام حقيقة.

ما أريده منك الآن إقناع عقلك بكون
ما يراه مجرد أوهام.

(ليس كي لا يصفك أحدهم
بالمجنونة، إنما كي لا تصبحي كذلك
بالفعل).

لكن قبل إقناع عقلك بذلك، عليك
القيام بشيء آخر أكثر أهمية لك الآن:
"التصالح مع خوفك."

نظرت بعدم فهم مجددًا، فأكمل
مفسرًا:

يولد وحش خوف كل شخص مع
ولادته، لكنه وحده يملك خيار
ترويضه أو السماح له بالتفاقم بداخله
حتى يقوم بالتهامه.

نحن لا يمكننا محو مخاوفنا ولا
التخلص منها، ما يمكننا فعله هو
التصالح معها.

- تقصد أنه عليّ معانقة تلك
الأشباح؟!!

- لا، كل ما عليك فعله هو تجاهلها،
عدم السماح لها بالتأثير عليك،
تصرفي معها ببديهية، ولا تعيري
شكلها أي اهتمام...

"وتذكري دائماً أن الشجاعة لم تكن
يوماً في عدم الخوف، بل في
السيطرة عليه."

شاركته تفاصيل أكثر عن حالتي،
وأجبتة عن كل أسئلته، ثم كانت تلك

نصيحته الوحيدة لي: "التصالح مع
الخوف".

خرجت من تلك الجلسة مشتتة الذهن،
أُخلّصني وجهة نظره هذه من
مخاوفي حقًا؟

كان موعد الجلسة القادمة بعد
أسبوعين، بدا واثقًا من جلسته
الأولى، وكونها ستجدي نفعًا.

وربما أنا أيضًا، وبشكل من الأشكال،
كنت واثقة من ذلك!

ربما مشاعري نحوه السبب، وربما
اقتناعي بكلامه، وتبقى فترة
الأسبوعين تلك وحدها القادرة على
كشف حقيقة ذلك...

كان ذلك أول يوم لا تلاحقني فيه
الكوابيس مذ ماتت أختي، فقد تم
إنقاذي في الكابوس الأخير.

أردت استغلال كل لحظة، زرت
أماكن هادئة قليلة بعد انتهاء الجلسة،
ثم عدت.

استلقيت على سرير منهدمة.

رغم تعبتي، كنت مشغولة الذهن فيما
ينتظرني، بقيت أفكر قلقة من القادم
حتى غرقت في سبات عميق...

كنت في غرفتي، على سرير
استعداداً للنوم.

تعالى صرير باب غرفتي حتى أثار
قلقي، بدأت أسمع أصواتًا من جوف
الظلام تشبه الفحيح، تناديني بشكل
مرعب.

تسارعت دقات قلبي، اتجهت إلى
باب الغرفة نصف المفتوح بخطوات
حذرة.

ما إن استرقت النظر لما يختبئ خلفه
حتى انقضت عليّ تلك المسوخ،
كانت مسوخًا تشبه تلك الشخصيات
التي حفظتها، حفظت شكلها رغم
غرابته.

جثت على جسدي وسط صراخي،
كانت كجحافل نمل تحيط بقطعة
طعام.

بدأت أشعر بدفء دمائي التي غرقت
فيها، أشعر بأنفاس تلك المسوخ
ولهاثها.

أشعر بأطرافني تُبتر طرفاً بعد آخر.

ثم شعرت فجأة أنهم ابتعدوا!

كأنهم يعطونني فرصة استيعاب ما
أنا عليه.

كنت مقطعة الأطراف، مشوهة
الوجه و...

قبل أن أدرك أي شيء آخر، انقض
عليّ ذلك الجسد الضخم، ربما كان
منهم، لكنه كان أضخم.

لُهاثهم الآن أقوى، أنفاسهم متسارعة
أكثر، شعرت بثقل يشل جسدي، ثم...

فتحت عيني مفزوعة من ذلك
الكابوس البشع!

لكن ما لبثت أن أقنعت نفسي بأنه لم
يكن سوى كابوس، حتى حدث ما
جعل ذلك الاقتناع يتلاشى...

صرير الباب كما كان قبل قليل في
الكابوس، الأصوات ذاتها تصدر من
خلف باب الغرفة المغلق.

للحظات كان جسدي مشلولاً، لا
أقوى على الحراك، ثم سرعان ما
استعدت القدرة على تحريك جسمي،

فهرولت مسرعة نحو الباب لأحكم
إغلاقه.

أسمع طرقات خفيفة على الباب الآن.

أخذت سريري الضخم ودفعته بكل ما
أملك من قوة نحو الباب لأقوم بتثبيتته،
ثم ألحقت به بقية أثاث الغرفة الذي
كان ثقله مقاربًا له.

الباب الآن محكم الإغلاق بقوة أكبر.

الطرقات الخفيفة الآن تحولت إلى
أخرى عنيفة، صحبتها زمجرة بدت
شرسة حد القتل عن بُعد.

تسارعت أنفاسي واضطربت
نبضاتي، صوت الطرقات العنيفة

كسَنَ في أذني، كان كالطنين
المزعج، أضرب أذني بعنف راجية
منه التوقف، لكنه لم يفعل. أصرخ
بهستيرية، كنت خائفة مضطربة،
فقدت أعصابي، فقدت عقلي، عادت
الرعشة لديّ والصداع لرأسي، كل
شيء عاد لما كان عليه.

لقد كان ما رأيته أثناء نومي مجرد
تمهيد لشيء أكثر فظاعة سيفعلونه
بي إن فُتح الباب.

يريدون إرعابي بأشد الطرق قسوة،
كانهم يقولون:

"هذا ما سنفعله بك، امنعينا إن
استطعت منعنا."

الآن لا يمكنني فعل شيء، هم الأقوى
وأنا من سيتم تمزيق جسده في
النهاية...

لا، لا، لا، لا!!

الطرقات تصبح أكثر عنفاً مع كل
ثانية تمر، وقتها لم يخطر لي أبداً ما
قيل لي في الجلسة، لكنني تذكرته في
النهاية.

بحثت عن خلاص، عن أي وسيلة
تتقذني مما كنت فيه، فلم أجد سوى
تلك العبارة:

"عليّ التصالح مع خوفي."

رددت تلك العبارة بأنفاس متقطعة،
أزلت يدي ببطء عن أذني، حاولت
إيقاف رعشة يديّ.

حاولت استجماع شجاعتي، اتجهت
إلى الباب مجددًا، بخطوات مترددة
بطيئة حذرة، عيناه الزرقاوان لا
تفارقانني وهو يقول تلك العبارة. إن
أردت إعطاء نفسي فرصة ثانية فلا
بد لي من التغلب على ذلك التردد.

حسمت أمري بعد فترة تفكير، أزلت
الأغراض عن الغرفة غرضًا تلو
آخر، ثم ترددت مجددًا حين لم يبقَ
سوى فتح الباب.

بدأ الخوف يسيطر عليّ، حاولت
جاهدة تجاهله وإكمال ما كنت بصدد
القيام به، لكنني لم أستطع.

كلما لمست درفة الباب عدت أدراجي
كأنها كومة جمر.

بقيت أحاول لفترة، لكن ارتفاع
الطرق كان يقلل عزيمتي أكثر.

لم أستطع، فقدت الأمل، فجلست عند
ذلك الباب ودموع العجز منهمرة
على وجنتي.

بكيت يأسى وعجزي رغم كون حل
مشكلتي بين يدي.

بدأت ومضات من الماضي تمر
بذاكرتي كالشريط المتكرر.

كل من مات وأقنعني عقلي أنني
السبب في موته، كل من بكيت فراقه،
كل من أشعرني غيابه بالوحدة.

تذكرت طلب أختي الأخير، حين
طلبت مني العودة إلى العلاج. توقف
الشريط كأن ذاكرتي تجمدت عند ذلك
المشهد، ثم وقعت عيناى على تلك
العيون الزرقاء.

هل يعقل أنني أحارب لأجله؟
كي لا أخسره كما خسرت من قبله؟

لا يمكنني تحمل خسارة أخرى،
الموت سيكون أرحم من ذلك.

مسحت دموعي ثم، وفي لحظة
استجمعت فيها كل ما لدي من
شجاعة، فتحت ذلك الباب.

أغمضت عيني مرحبة بما ينتظرني،
إما موت تكون رحمة لي من حياة
كالتى أعيشها، أو حياة جديدة تكون
خلاصًا من جحيمي هذا. أغمضتهما
مستسلمة لما سيحدث، أيًا كان...

انتظرت للحظات، ثوانٍ، دقائق، ولم
أقتنع بعد أن شيئًا لم يحدث!

توقفت الزمجرة، اختفت الأصوات
لتحل محلها سكينة غريبة، فتحت
عيني...

ثم انفجرت أساريри حين أيقنت أن
كل شيء قد انتهى.

لم أعتقد يومًا أن شيئًا كهذا سيقرب
الموازين، ونظرية طبيب نفسي قادرة
على إنهاء معاناتي.

ضحكت فرحًا، عكسته عيناى بدموع
تدحرجت على وجنتي.

كان معه حق، لم أكن أحتاج سوى
التصالح مع خوفاى لأقنع عقلى أن ما
أراه لا أساس له.

تلت تلك الليلة ليالي أخرى كثيرة
متشابهة.

وردة فعلي ذاتها في كل مرة، بدأت
بالمواجهة ثم التجاهل.

لا أصدق نفسي حين أقول إن شيئاً
من كوابيسي لم أعد أراه في الواقع.

كأي شخص طبيعي، صارت نهاية
كل كوابيسي انتفاضي من مضجعي،
تغادر بعد استيقاظي دون ترك أي
أثر.

وإن كانت رؤيتي لها أكثر من الحد
الطبيعي، لكن مجرد عدم لحاقها
بواقعي يعتبر تحسناً لم أتخيل يوماً أن
تصل حالتي إليه.

ممتنة جدًا لذلك الطبيب، ممتنة
لنصيحته ولمشاعري التي جعلتني
أثق به.

لا تزال مشاعري نحوه كما هي، أو
ربما زادت، ولا تزال تتفاقم يومًا بعد
يوم.

أردت التعرف عليه أكثر، الآن
صارت لدي الجرأة لجعله جزءًا من
حياتي دون خشية خسارته.

لكن هل سيقبل هو أن يكون جزءًا
من حياتي؟

هذا ما لم أزد التفكير فيه، فتجاهلته.

بعد مرور أكثر من أسبوع، وحالتي
أخذة في التحسن، حاولت العودة إلى
القراءة، لكن ذلك لم يفلح.

أردت كتابة ما أشعر به، لكن حتى
ذلك لم أنجح فيه.

لا أزال غير جاهزة، ربما لن يتحسن
كل شيء دفعة واحدة، قد يحتاج إلى
وقت.

وربما يمكنني منحه ما يحتاجه.

في اليوم الرابع عشر وضعت دفثري
مع أحد الكتب في المكتبة بعد عدة
محاولات فاشلة.

التقطت هاتفي وبدأت أبحث عن أي
معلومات قد تجعلني أتعرف على ذي
العيون الزرقاء أكثر.

لكني لم أجد عنه سوى مسيرته في
الطب النفسي، كل المعلومات التي
وجدتها عنه كانت مكلفة بإنجازاته في
عمله.

ذهبت إلى الجلسة بعد أن تخلصت
من وهم الآلام بشكل كلي.

كنت مختلفة تمامًا عما كنت عليه
آخر مرة.

وحتى ذا العيون الزرقاء شعرت أن
كلامه صار أكثر برودة يومها.

لكن بعد عدة جلسات بدأت أشعر أنه صار أقرب، صار كلامه أكثر ليئاً، وصارت علاقتنا أقرب للصداقة.

ربما كان هذا طبيعياً بين أي مريض وطبيب نفسي، لكنني رحبت بتلك العلاقة على أي حال.

وربما كان ذلك إنجازاً ينسبه إلى نفسه حين يسترجع خوفي من العلاقات قبل مقابلته.

كانت نقطة تحول كبيرة في حالتي، لكنه لم يكن يعلم بالمشاعر التي دفعتني لتقبل تلك العلاقة.

بقيت متمسكة بها كما هي، لم أحاول تطويرها خشية خسارته.

أمور كثيرة لم أعتد عليها، إلى جانب
أخرى أكثر، استطعت التغلب على
خوفي منها.

كالتجول مع القليل من القراءة، لكنني
لم أستطع العودة إلى الكتابة بعد.

لم أتصالح بعد مع خوفي المرتبط
بها.

في اليوم الذي عدت فيه إلى القراءة،
عدت إلى المنزل بعد انتهاء الجلسة
على الفور، قضيت ما تبقى من ذلك
اليوم بين الكتب.

ربما لم أستطع الغرق بين صفحاتها
طيلة كل يوم كما كنت أفعل، لكن

العمق الذي كنت أصل إليه كان كافياً
بالنسبة لي، وربما كنت أراه كثيراً!

كلي امتنان لذلك الشغف الذي أعاد
الشغف إلى حياتي، تمامًا كما أحيا
تلك المشاعر الجميلة التي غزت قلبي
مذ رأيتته.

استيقظت صباح ذلك اليوم مبتسمة
في وجه يومي الجديد، نشطة
مسرورة عاشقة للحياة.

ألقيت نظرة على إطلالتي البحرية،
استنشقت هواءها النقي، داعبت
نسماته خصلات شعري المتناثرة.

أخذت حمامي الطويل الدافئ المعتاد،
ثم وجدت مكالمة فائتة من سالفادور.

أعدت الاتصال به قبل ارتداء
ملابسي.

"لدي مفاجأة لك، هناك مكان علينا
زيارته معًا."

كان ذلك مفاد المكالمة، أغلقت الخط
ثم أدلقت إلى دولاب ملابسي.

انتقيت ثيابًا بسيطة مريحة، لا أحتاج
الآن للمبالغة في الاعتناء بمظهري
كي أثبت أنني بخير.

فأنا كذلك مهما كان ما أرتديه.

وجدت نفسي أخيرًا، وصار
بإستطاعتي التصرف على طبيعتي،
لا أود تصنعًا في حياتي بعد الآن.

إن كنت تتساءل عن حال كوابيسي
الآن، فهي لا تزال موجودة، لكنها
صارت كالسفر القصير، وإن كان
المكان بشعًا، لم يعد لها تأثير عليّ،
حين أعود إلى عالمي أجد خوفي كله
قد تلاشى.

كنت جاهزة تقريبًا حين وقف
سالفادور بسيارته أمام القصر
ينتظرني.

ركبت السيارة بحماس غامر لكل
لحظة سنعيشها معًا، أحيانًا تخيفني
سعادتي المفرطة، فأنا لم أعتدها قط،

لكن ذلك الخوف يتلاشى كالسراب
حين أنظر إلى تلك العيون الزرقاء،
لتحل مكانه طمأنينة تسكن كل
أرجائي.

حاولت الاستفسار عن المكان الذي
ننوي الذهاب إليه، لكنه لم يجبني
وبقي مصرًا على أنها مفاجأة.

بقيت صامتة بعد أن يُست من
العثور على جواب، شغلت نفسي في
التمعن في تفاصيل الطريق، صار
كل تفصيل صغير يسعدني.

بدأت أشعر أن المكان مألوف، أو أن
هذا الطريق سبق أن سلكته من قبل،
بحثت عنه في ذاكرتي، فأوقفتني
السيارة حين توقفت معلنة وصولنا.

رفعت نظري لأرى المفاجأة، توقعت
رؤية شيء مفاجئ، لكني لم أتوقع
أبدًا أن يأخذني إلى حيث التقينا أول
مرة!!

إنها المكتبة ذاتها.

ثبتت نظري عليها مسترجعة أحداث
ذلك اليوم، فانتشلي صوته:

- هنا رأيك أول مرة، كنت محطمة
القلب مشتتة الذهن، كانت مخاوفك
تسيطر عليك بالكامل، كنت في
ضياح حقيقي.

وهكذا كنت أنا حين أتيت إلى هذا
المكان، أتيته تائهاً والكثير من
إشارات الاستفهام يملأ رأسي.

وهنا وجدت نفسي.

نظر إلي ليرى ردة فعلي، لكن
نظراتي كانت تستنطقه.

لطالما كانت قصة هذه المكتبة غريبة
بالنسبة لي، رغم تطور علاقتنا لم
نتحدث يوماً عن لقائنا الأول، لم أكن
أود الإفصاح عن مشاعري ولا
التحدث عن يوم وقعت في حبه.

ولكن حتى هو لم يحدثني عن ذلك
اليوم.

نظراتي التي كانت لا تزال تستنطقه
حثته على إكمال كلامه:

- الويزيانا...

أنا...

هناك شيء أود إخبارك به...

في ذلك اليوم...

حين أتيت إلى هذه المكتبة...

حدث شيء...

كان يتلعثم في كلامه ويسكت من
وقت لآخر، مكتفياً بالنظر إلى عيني،
ولا أدري ما الذي انتظرت منه قوله

وقتها بالضبط، لكن نبضاتي
اضطربت متلهفة لما يود قوله:

- أحبيتك!!

هكذا قالها مستجمعًا كل شجاعته،
كان ينتظر رؤية أي ردة فعل مني،
لكني كنت تحت وطأة الصدمة
وقتذاك، لم أصدق ما سمعته، وجدت
صعوبة بالغة في استيعابه.

ربما بعض الرغبات تصل لمرحلة
يصبح من الصعب عليك تصديق
تحققها، وكأنها كانت أكبر من أن
تتحقق، كأنها أحلام أكبر من أن
تكون حقيقة!

أي صدفة هذه التي ترتب كل هذا
بهذه الدقة دون تدخل منا؟!!

كنا لبعضنا منذ ذلك اليوم، ولكن
كيف لنا أن نكون؟!!

كانت فرصة جميلة كي أبادله
الكلمات ذاتها، لكن الكلمات لم
تسعفني، انعقد لساني فلم أجد عليه
أي عبارة ولا حتى حرفاً!

قال بتوتر بادٍ على ملامحه:

- ولكن هناك مشكلة، هناك شيء
عليك معرفته.

أنا... أنا مسلم!

أنا لم أكن يومًا مهتمة بالدين ولا
بالبحث عنه.

لكني لحظتها تمنيت الغوص في
أعماق كلمة "مسلم" هذه، أردت
تحليل تفاصيلها، معرفة معناها كي
أزيحها إن كانت هي العائق بيننا!
قلت ببلاهة بعد صمت طال أكثر مما
يجب:

- وأنا... وأنا أيضًا أحببتك منذ ذلك
اليوم، حبًا أكبر من أي منطق!

بقينا صامتين بعد ذلك الاعتراف
الذي أصبح متبادلًا، ربما حتى هو لم
يتوقع ذلك، لم يكن أي منا يتوقع.

بقيت قصة تلك المكتبة وعلاقتها بنا
غامضة.

- وما علاقة هذه؟

سألت مشيرة نحو المكتبة.

- هدى.

قال وهو يشير نحو اللافتة.

نظرت حيث أشار، كان اسمها كما
قال، مكتوبًا بخط إنجليزي ملفت،
وعلى الجانب الآخر كان مكتوبًا بلغة
أخرى، لغة لم أكن مهتمة بها يومًا.

كانت مكتوبة بخط عربي غير
مألوف بالنسبة لي، أنا لا أكره
العرب، لكني لا أحبهم أيضًا، فقط لم

أعرفهم يومًا، ولم تكن حالتي تسمح
لي بالتعرف على أقاربي، فكيف بمن
لا علاقة لي به؟!!

لكني لا أنكر أنني لحظتها أردت أن
يكون كل ما يهتم به أكبر اهتماماتي.

- إنها عربية الأصل، ظهورها كان
غامضًا ولا يزال كذلك، أسلوبها
استثنائي كما كتبتها المترجمة.

كانت دعوة إلى الإسلام بطريقة ما،
بشكل بقي غريبًا حتى بعد احتكاكي
بها.

لقد كانت سببًا في اعتناق الكثيرين
للإسلام، وكنت أنا من بينهم!

كان شاردًا وهو ينظر إلى تلك اللافتة
طيلة حديثه.

نظر إليّ نظرة لم أكن أعرف ما
الذي كان يقصده بها بالضبط، لكنني
وقتها لم أكن أفكر سوى في كسر أي
حاجز يقف بيننا.

قال وعيناه الزرقاوان تخترقان
عيني:

- الويز، لقد أتيت إلى هذا المكان
لأول مرة وأنا في نفس حالك.

قرأت الكثير قبل عثوري على
الطريق الذي كان عليّ سلكه.

مررت بالكثير قبل الوصول إلى
الصراط المستقيم.

هذه المكتبة كانت كالسراج الذي أنار
لي ذلك الطريق كي يريه لي.

وحين رأيتك شعرت بما لم يكن عليّ
الشعور به.

ليس الخوف من الرفض هو ما
منعني من البوح لك بما أشعر به، بل
معرفتي بإحادك هي من فعل.

لا شأن لمسلم مع ملحدة.

لقد قمت بواجبي تجاهك، لقد شُفيت
الآن ولم أعد أود الإكمال في قصة
مبهمة النهاية.

أو ربما محتومة منذ البداية.

لقد فعلت الكثير مما لم يكن ديني
يسمح به، لم أعد أستطيع تشويهه
أكثر.

ربما لم أكن في رشدي من قبل، لكني
الآن قررت أن أكون كما يجب أن
أكون.

ثم أخذ بضع خطوات نحو المكتبة
حتى كاد يصل لعتبتها.

ثم توقف، التفت إليّ نظرة حملت
الكثير، وربما كان الرجاء أكثر ما
حملته.

- أتمنى لو بإمكانك سلك الطريق
ذاته، أتمنى أن نسلكه معًا.

فكرت كثيرًا قبل أن أتخذ قرارى،
كنت أنوي تحطيم كل الحواجز بيننا،
لكنى لم أكن أود الخوض في أمور
كهذه.

مجاراتي له الآن تعني تغيير كل ما
كنت أوّمن به، قرارى الآن سيمثل
نقطة تحول كبيرة في حياتى، ولا أود
التسرع.

لكنى "لن أخسر شيئًا إن جربت".

اقتربت منه لتلتقط عيناى تفاصيل
زرقاوية، ثم قلت بحزم:

- سأحاول من أجلك.

دخلنا سوياً تلك المكتبة، شعوري
الآن وأنا أطا عتبتها لا يشبه شعوري
المرة الماضية.

كل شيء كان قد تغير إلا ذلك
الإحساس الغريب الذي لا يزال
يجتاحني في كل مرة أدخلها.

هذه المرة كان سالفادور - أو سالم،
فقد قال إن ذلك يعجبه أكثر - هو من
انتقى الكتب لي.

في البداية كنت أقرأ بنهم دون تفكير،
كل ما أردته فهم كلمة "إسلام"
والتعامل معها كعقبة عليّ إزاحتها.

لكن أسلوب تلك الكتب الاستثنائي لم يسمح لي بأن أقرأ قراءة عابرة، كنت أغوص فيها بعمق يزيد يوماً بعد يوم، صرت كثيرة التردد إلى تلك المكتبة، أزورها مرتين في الأسبوع على أقل تقدير.

تسمح لي بأخذ بعض الكتب معي لفترة، رغم كثرة الكتب في مكتبتني، إلا أن شعوري في تلك المكتبة لم يكن يضاهيه شعور.

بعد قراءة الكثير من تلك الكتب استعادت ذاكرتي عبارة قيلت لي ذات مرة:

"حياتك فارغة."

ربما هذا ما كانت تقصده، أنني لم
أكن أعرف لم خلقت وكيف عليّ
قضاء هذه الحياة، ربما المعنى هو ما
كان ينقص حياتي.

الآن فقط فهمت معنى ما قالتها.

لم تعد القراءة كي أزيح العائق من
علاقتي بسالم، ولا لأن أسلوب الكتب
كان يعجبني، بل صرت أقرأها لأنني
بدأت أرى طيف نفسي بين صفحاتها،
كانت رؤيته تتضح مع كل حرف
أقرأه.

ولا أزال كذلك حتى وجدت نفسي،
أجل، وجدت بين طيات تلك الكتب،
في ذلك الإسلام الذي لم أعرفه قط.

الآن عرفت سبب خلقي، وكيف ومن
خلقتني، صرت أعرف من كان ولا
يزال يدير كل ما هو حولي في هذا
العالم.

الآن عرفت معنى أن تجد لنفسك هدفًا
في حياتك غير أن تعيشها فحسب،
غير أن تكون للمتعة لا غير.

عرفت ما الذي كان ينقصني مذ بدأ
عقلي يضطرب ويختل توازنه دون
أن يجد يقينًا يتكئ عليه، هذا ما كانت
تعنيه عبارة:

"أنت غير محصنة."

الآن وجد عقلي يقينًا ينتشله من
ضياح كاد يغرقه، لقد أسلمت!

أجل، أسلمت باقتناع تام لا علاقة له
بسالم ولا بغيره، بعد عدة شهور فقط.

وبعد أشهر أخرى مرت مذ اعتنقت
الإسلام، تزوجت أنا وسالم.

كان قد عاهد نفسه أن يكون ملتزمًا
قبل زواجنا، أو ربما قبل إسلامي،
المهم أننا صرنا واحدًا الآن على أي
حال.

صباح اليوم الثاني من زواجنا:

كنت فرحة كمن عاش أكثر من
نصف حياته في الجحيم ثم، وفي يوم
غير متوقع، وجد نفسه في نعيم لا
نهائي.

استيقظت في ذلك الصباح وقلبي
مفعم بمشاعر كان وصفها مستحيلًا.

نظرت يميني فلم أجد سالم حيث
كان، اتجهت إلى الشرفة باحثة عنه.

كان ملتفتًا نحو الإطلالة شارد الذهن،
خطوت نحوه محاولة عدم إصدار أي
صوت، ثم عانقته من الخلف، لم أقل
شيئًا وكذلك كان هو.

لم يكن صمًا ثقيلًا، بل كان صمًا
جميلًا ينطق بأجمل ما قد تسمعه أذن.

كان سلامًا داخليًا لم أشعر به من قبل
قد سكن قلبي.

فك عناقي بلطف ثم التفت إليّ بوجه
لم أكن قد رأيته به من قبل، كان
مختلفًا، كان السكون طاغيًا على
ملامحه، نور غريب يشع من وجهه
كأنه من عالم آخر، تحولت زرقاوان
إلى عيون سوداء لامعة، لم يكن هو
على الإطلاق رغم أنه كان هو!!

بعد لحظة كنت فيها تحت وطأة
الصدمة قال بصوت عميق:

- لم تعد حياتك كابوسًا كما كنت
تقولين، أليس كذلك؟

صمت لبرهة ثم قال:

- هنا تنتهي رحلتنا معًا، الويزيانا
روكفلر...

وضع يده على رأسي وتمتم بكلمات
لم تكن مفهومة لي، كنت متفاجئة ولم
أكن أفهم أيًا مما يحدث.

- تصبحين على خير!!

دارت الأرض من حولي قبل أن
يتحول كل شيء إلى ظلام، بعد
هنيهة شعرت أن ذاكرتي أصبحت
فارغة كما لو أن شيئًا في حياتي لم
يحدث!!

صمت، فراغ، ظلام، هذا كل ما كنت
أشعر به.

ثم سقطت!!!

لحظات مرت وأنا لا أزال محاطة
بالظلام والصمت والفراغ، ثم أتى
ذلك الصوت مجهول المصدر الذي
بدأ بالهمس، ثم سرعان ما تحول إلى
نداء:

- الويز.. الويز.. الويزيانا،
استيقظي...

استيقظت وكانت الصدمة حين فتحت
عيني.

وجدتني في غرفتي!

وليست غرفتي في هامبتونز، بل
غرفتي في بيتبانج!!

وأمرًا آخر...

مهلاً...

من أيقظني؟!!!

درت في أرجاء الغرفة دون النظر
لمن أيقظني، وحتى تصرفني هذا كان
غريباً!

وجهت نظري نحو صاحب الصوت
فرايت أختي!!

كانت هي من أيقظني، ولكن كيف؟

لا بد أنني في حلم ما، لكنني أصبحت
قادرة على التمييز بين الأحلام
والواقع، لا يمكن أن أخطئ في هذا
مجدداً.

قالت وهي تنتشلي من تفكيري:

- لم أتوقع أن تنامي كل هذا الوقت،
لقد انتصف اليوم وأنت نائمة منذ ليلة
البارحة، أنسيت أن حفل تخرجك بعد
أيام؟

حفل تخرجي؟!!!

كيف ذلك؟

أيعقل أن يكون الزمن قد عاد بي
أربعة أعوام إلى الوراء؟!!

لم أتكلم معها لأنني كنت متأكدة أنها
ليست حقيقة.

طلبت مني تجهيز نفسي والخروج
معهما إلى مكان ما، تمعنت في
تفاصيل الغرفة بعد خروجها، كانت

تمامًا كما تركتها قبل أربعة أعوام،
رغم أنني كنت منذ قليل متيقنة أن
هذا حلم، لكني الآن أشعر أن كل ما
مررت به هو ما كان حلمًا، عليّ أن
أتأكد.

لحقت أختي منادية لها، والغريب أنها
أجابت!

سبق ورأيتها في أحلامي، لكني لم
أكن أستطيع التحدث معها أو لمسها.

قلت مقتربة منها بتوجس:

- أين أبوانا؟

أجابت كما لو أنها تتحدث عن روتين
يومي اعتادته:

- إنهما في الشركة مع أدريان،
ضغوط العمل كما تعلمين...

صُعقت من إجابتها ولم أسمع شيئاً
مما قالته بعد ذلك.

ثم... ثم شعرت أنها حقيقية!

ارتفيت في حضنها باكية، لا أصدق
أن ما عشته كان حلمًا كما تمنيت
ألف مرة، لم تكن أختي تعرف سبب
بكائي، اكتفت بأن ربّيت على كتفي
بصمت واستغراب.

لا أزال لا أصدق، لكن...

لكن فرحت بذلك العناق، استنشقت
عبرها بعمق حتى امتلأت رئتاي
منه.

بعد فترة طويلة فككت العناق، أردت
تجربة ذلك الشعور مع البقية، سواء
كان هذا حلمًا أو واقعًا.

تجهزت بسرعة واتجهت نحو
الشركة، ثم أدلفت إلى مكتب أبي
على الفور...

كان هناك، لم أتوقع وجوده رغم
قدومي.

اندفعت نحوه ركضًا، طوقته
بذراعي، استنشقت عبره بعمق،
أردت البقاء في حضنه وقتًا أطول،

لكني ذهبت إلى مكتب أمي بسرعة،
كأنني خشيت أن ينتهي ذلك الحلم قبل
أن ألتقي بها.

حين خرجت من مكتبه وجدت أمي
عند الباب، الوضع أصبح أكثر
غرابة، أي حلم هذا الذي حوى كل
من أحب؟

بدأ ذهني يتشتت حين رأيت أمي،
يستحيل أن يكون هذا مجرد حلم،
ولكن في الوقت ذاته لا يمكن أن
تكون الأعوام الأربعة التي عشتها لا
تتجاوز ثماني ثوانٍ!!!

كل شيء هنا حقيقي، حتى رائجتهم
كما هي، لكن أمي...

يستحيل أن يتمكن أي حلم من إتقان
عبيرها.

عانقتها دون أن أنطق بأي حرف،
أخذت أتفقد تفاصيلها، أستنشق
عبيرها بعمق أكبر، وما صدمني أنها
كانت كما هي!

مستحيل!!

خرجت ركضًا من الشركة تائهة، إن
كل من ظننت مات لم يموت، ماذا عن
سالم؟

ماذا عن الإسلام؟

ماذا عن الكتب المحفورة في ذاكرتي
الآن؟

أنا على يقين من ذلك، لكن...

سحقًا، لا يوجد يقين!

التقطت هاتفي بما تبقى من تركيزي،
أخذت أضغط على أرقام أصدقائي
واحدًا تلو الآخر، والمفاجأة الأكبر
أنهم كلهم على ما يرام!

لم يمت أحد، لم يؤذَ أحد، كل شيء
كان مجرد حلم منذ البداية!

قصة الجن، الكوابيس الواقعية، قصة
المكتبة وكل ما حدث في الأعوام
الأربعة الماضية، لا شيء حقيقي،
مخي سينفجر!

مهلاً!

هناك مكان عليّ الذهاب إليه، حيث
بدأ كل شيء، حيث حدثت أول
جريمة، حيث التقيت بفلورا.

على أحد الكراسي المصفوفة قرب
تمثال الحرية، وهنا لم يعد هناك
مكان للشك، هناك وجدت اليقين.

مرت لحظات لم أرَ فيها فلورا، ثم
ظهرت على بعد أمتار من ناظري.

كانت تلعب كما لو أنها لم تعرفني
يومًا، مما يثبت أن كل ما حدث لم
يكن حقيقة، إلا إسلامي!

"أجل، لقد نمت ملحدة واستيقظت
مسلمة!!"

الأمر أشبه بمعجزة، بل هو معجزة
حقيقية!

قضيت بعض الوقت لم أستوعب فيه
ما حدث، ثم بدأت الطمأنينة تجد
مكانًا في نفسي.

هذه هي النسخة المنقحة، مع تشذيب
المواضع التي كان فيها تكرار يبطئ
المشهد، مع إبقاء النبرة والأحداث
وطريقة السرد كما هي.

أمعنت النظر في التمثال بتأمل، لكن
ليس كأى مرة، بل مع شعور أنني
حرة وسط القيود أكثر مما كنت بلا
قيود!

قد يبدو الأمر صعب الفهم، لكنني أدركه الآن، لقد كنت منذ البداية أسيرة يقين كاذب، لا أدري كيف أثر ذلك على كوابيسي، ربما كانت تلك طريقة التنبيه المناسبة لي.

لقد استسلمت الآن للحقيقة، لقد عشت حياة كاملة في ليلة واحدة، ليلة مثلت أكبر نقطة تحول في حياتي، ولن أعترض على ذلك، لكن هناك شيء واحد عليّ القيام به.

عليّ البحث عن سالم، شيء ما يقول إنه موجود في مكان ما، لا بد أن شيئاً من هذا الحلم على أرض الواقع.

طال تأملي قبل أن أنطق الشهادتين، كأني أردت التأكد من قدرتي على

إخراجهما من بين شفتيّ، جزء مني
في أعماقي كان سعيدًا لذلك.

توقعت أن يكون من الصعب عليّ
عيش حياتي الجديدة، لكن الأمر لم
يكن بالصعوبة التي توقعتها.

لم أعتد على المعلومات التي
اكتسبتها من المكتبة في الحلم، بحثت
وبحثت حتى درست في بعض
المعاهد الإسلامية.

والغريب أن كل ما درسته في تلك
المعاهد كنت على علم سابق به.

كان اندهاشي يزيد لحظة بعد أخرى،
أنا لم أعش فقط حياة كل شخصية
إسلامية.

كأنني قضيت عمرًا أدرس القرآن
والسنة.

أقسم أنني لو سمعت هذا الكلام من
أحدهم لما صدقته.

لكن سماعه شيء، وأن تعيشه شيء
آخر تمامًا.

بعد فترة طويلة من البحث استطعت
العثور على سالم، كان كما عرفته
من قبل، "طبيبًا نفسيًا"، لكن إسلامه
لم يكن بسبب المكتبة كما قال في
الحلم، بل تأملاته في النفس البشرية.

لا أصدق نفسي حين أقول إنني
وقعت في حبه مجددًا، شيء غريب

في هذا الشخص يجعلني أقع في
غرامه في كل الأماكن والأزمنة.

الآن علمت أن الصدفة لم تكن هي
من جمعتنا، لا توجد صدف أصلاً.

في الكثير من الأوقات شعرت أن
أحدهم يتحكم بي، الآن علمت أنه
نفسه من يتحكم بكل شيء.

وحتى القدر الذي أراد أن يكون سالم
من نصيبي، سواء في الحلم كان أو
في الواقع...

بعد عودتي في ذلك اليوم إلى المنزل
كنت غريبة الأطوار لفترة، كأنني
أتيت من حقبة زمنية مختلفة.

كان من الصعب عليّ التأقلم، كما
كان من الصعب على عائلتي
استيعاب نسختي الجديدة.

كانت كل تصرفاتي تبدو لهم غاية في
الغرابة.

لم أعلمهم بإسلامي وقتذاك، بل
انتظرت حتى أنهيت دراستي في
المعاهد كتمهيد.

لم يعترض أي منهم، كانت لي
الحرية الكاملة كي أتخذ القرار،
وشئياً فشيئاً بدأت أعود.

أما المكتبة فلم أجد لها أي أثر في أي
مكان، لم تكن سوى من نسج ما لا
يمكنني القول إنه مجرد خيال.

بعد ما يقارب العام من عودتي من
السفر، من حيث كنت أدرس، كنت
وقتها قد قضيت معظم وقتي في
القراءة.

بعد لقائي بسالم عدت للكتابة أيضاً،
استعنت بتدريباته كيف أفعل ذلك.

كان كل شيء مختلفاً لدرجة لا
يتصورها عقل.

لكن المهم في الأمر، والجميل فيه،
أن كل شيء كان حقيقياً رغم
اختلافه.

بعد أشهر من لقائي بسالم، حدثته عن
كل ما عشته في ذلك الحلم الغريب.

لم يجد له أي تفسير، لكن الغريب أنه
هو أيضًا كان قد رآني في حلم له قبل
أن نتقابل.

لا يمكنني وصف شعوري حين
علمت ذلك، كل ما يمكنني قوله إن
كل ما حدث لم يكن سوى معجزات
رأيتها على أرض الواقع، فلم يكن
لدي أي مجال كي لا أؤمن بها.

لم يمضِ سوى بضعة أشهر حتى
تمت خطوبتي من سالم.

كل شيء كان يمر بوتيرة سريعة،
كأن أجزاء من ذلك الحلم حقيقة يجب
إثباتها بأسرع وقت.

لم يكن أيُّ مما حدث تحت سيطرتي،
لكنني على الرغم من ذلك كنت
سعيدة، ربما كما لم أكن من قبل.

استيقظت في ذلك اليوم فوجدت وجه
سالم في وجهي، كأن تلك اللحظة في
الحلم تلاشت كي تتعوض في الواقع
بأخرى أكثر عمقا.

قلت في لحظة اعتراف فاض قلبي
فيها بما كان مفعماً به:

- لقد أحببتك قبل أن أعرفك، وأحببتك
أكثر حين عرفتك.

أحببتك في أحلامي وكوابيسي، في
خيالي وواقعي.

أحببتك في الماضي، ثم زاد حبي
أكثر وأكثر في حاضري.

لقد أحببتك ولا أزال أحبك، وسأظل
أحبك في كل مكان وزمان.

لا يمكن لأي مقياس في العالم أن
يقيس حبي لك.

لم يكن منه سوى أن اخترق عيوني
بزرقاويه، كاشفاً كل ما أخفته ولم
تسعفها الكلمات كي تبوح به، ثم قال
ونظراته تخترق أعماق أعماقي:

- ومهما أحببتني، سيظل حبك نقطة
في بحر حبي الهائج.

هكذا كانت علاقتنا وأكثر، كانت
قصة خيالية تتجسد على أرض الواقع
لأول مرة.

كنت ممتنة لما عشته، لذا بدأت كتابة
قصتي.

صدق من قال إن أجمل القصص ما
كان واقعياً منها.

ولكن رغم سعادتي بما حصلت عليه
في نهاية القصة، غير أنني لم أستطع
نسيان ما عشته فيها من ضياح كاد
يُفقدني عقلي.

فأسميتها:

"كدت أجن"

حققت الرواية نجاحًا لم أتوقعه،
وكانها كانت إحدى ثمار ما عشته.

في حفل التوقيع كان هناك اعتراف
لا بد أن أفصح عنه.

كان عليّ ذكر اسم الشخص الذي
كان له الفضل في كون اسم الرواية
بصيغة الماضي، فلولاه لكنت قد
جننت بالفعل.

ربما لست ماهرة في كتابة النهايات،
لكن كل ما يمكنني قوله إنني
استطعت في النهاية أن أمسك بطرف
الذي كان سبيلي الوحيد للنجاة
وللخروج من ذلك العالم الغامض
الذي كان يسلبني عقلي.

تمت بحمد الله •

/09/142025

/08/162026

كُتِبَتْ

بقلم: مريم محمد المختار نيملان

بقلم مريم محمد المختار

بأكاد أجن ضياع

